الفارض : المسنّة[١] الّتى انقطعت ولادتها من الكبر[٢] وقد فرضت تفرض فروضاً أى أسنّت . ويقال للشّىء القديم فارض[٣] وقيل : الفارض الّتى قد وَلَدَتْ بطوناً كثيرة[٤] ويقول ابن فارس[٥] : « الفاء والرّاء والضّاد أصلٌ صحيح يدلّ على تأثير فى شىءٍ من حَزٍّ أو غيره . فالفَرْض : الحزّ فى الشّىء . يقال : فرضت الخشبة .... ومن الباب الفُرْضة ، وهى المَشْرَعة فى النّهر وغيره ، وسمّيت بذلك تشبيهاً بالحزّ فى الشّىء ، لانّها كالحزّ فى طرف النّهر وغيره » ويقول الزّمخشرى[٦] :« وكأنّها سمّيت فارضاً لأنّها فرضت سنّها أى قطعتها وبلغت آخرها » والفرض : القطع[٧] .

والبكر ، بكسر الباء : الصّغيرة الّتى لم تحمل[٨] و لم تلد[٩] والصّفة إذا كانت منفيّةً بلا وجب تكرارها كما قال :

وفتيان صدقٍ لا ضعافٍ ولا عُزْل[١٠]

والعوان : النَّصف الّتى قد ولدت بطناً أو بطنين وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه بخلاف الخيل[١١] وحربٌ عوان إذا كان قبلها حربٌ بكر . قال زهير :

إذا لقِحت حربٌ عوانٌ مُضِرّةٌ ضروسٌ تُهِرّ النّاس أنيابها عُصْل[١٢]

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٨١ والكشّاف ١/٢٢٠ والبحر المحيط ١/٢٤٨

(٢) البحر المحيط ١/٢٤٨

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٨١ وانظر تفسير الّطبرىّ ١/٢٧٠

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٤٨٢

(٥) معجم مقاييس اللّغة « فرض » ٤/٤٨٨

(٦) الكشّاف ١/٢٢٠ وانظر البحر المحيط ١ /٢٤٨

(٧) البحر المحيط ١/٢٤٨

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٢

(٩) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧١

(١٠) البحر المحيط ١/٢٥١

(١١) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٢

(١٢) تفسير القرطبى ص ٣٨٢ لقحت : حملت ، والمراد اشتدّت . والضّروس : العضوض السّيّئة الخلق . وتهرّ النّاس : تصيّرهم يكرهونها . والعصل : الكالحة المعوجّة . ضربها مثلاً لقوّة الحرب وقدمها . لأن ناب البعير إنّما يعصل إذا أسنّ . مختار الجاهلىّ ١/٢٣٧

ويقول الطّبرىّ[١] : « ويقال : هذه حربٌ عوانٌ إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرّةً بعد مرةً ، يمثّل ذلك بالمرأة الّتى ولدت بطناً بعد بطن » وقالت العرب : العوان لا تُعلّم الخَمِرة[٢] وجاء فى القاموس[٣] « والعوان كسحاب من الحروب الّتى قوتل فيها مرّةً . ومن البقر والخيل الّتى نُتِجَتْ بعد بطنها البِكر ومن النّساء الّتى كان لها زوج » .

بين : ظرف مكان متوسّط التصرّف تقول : هو بين المنكبين ، ونقىّ بين الحاجبين . قال تعالى : هذا فراق بينى وبينك[٤] وجاء فى تفسير الطّبرىّ[٥] : « فإن قال قائل : قد علمت أنّ بين لا تصلح إلاّ أن تكون مع شيئين فصاعداً فكيف قيل : بين ذلك ، وذلك واحد فى اللّفظ ؟ قيل : إنّما صلحت مع كونها واحدة لأنّ ذلك بمعنى اثنين ، والعرب تجمع فى ذلك وذاك شيئين ومعنيين من الأفعال كما يقول القائل : أظنّ أخاك قائماً وكان عمروٌ أباك ثمّ يقول : قد كان ذاك وأظن ذلك . فيجمع بذلك وذاك الاسم والخبر الّذى كان لابدّ للظّنّ وكان منهما . فمعنى الكلام : قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ لا مسنّةٌ هرمة ولا صغيرة لم تلد ولكنّها بقرةٌ نَصَف قد ولدت بطناً بعد بطن بين الهرم والشّباب . فجمع ذلك معنى الهرم والشّباب لما وصفنا » .

وما : موصولة ، والعائد محذوف تقديره ما تؤمرونه[٦] .

بعد أن ظنّ بنو إسرائيل قوم موسى عليه السّلام أنّه عليه الصّلاة والسّلام فى القول الّذى جرى على لسانه : ﴿ إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ يسخر منهم ويهزأ بهم ، وبذلك أثبتوا فعلاً الصفّة الّتى خلِعها عليهم موسى عليه السّلام وهى صفة الجهل والحمق والسّفه وذلك فى القول على لسانه عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ وعليه فإنّ بنى إسرائيل قد فشلوا فى خلع هذه الصّفات غير الحسنة عنهم ، بل على العكس من ذلك هم قوّوا من شدّة لصوقها بهم واقتصارها عليهم ، وكلّ إناءٍ ينضح بما فيه ، بعد أن ظنّ بنو إسرائيل ذلك ، وهو امتدادٌ لتعنّتهم وعنادهم وجراءتهم على

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٢
(٢) البحر المحيط ١/٢٤٨
(٣) « عون »
(٤) البحر المحيط ١/٢٤٨
(٥) ١/٢٧٢
(٦) البحر المحيط ١/٢٥٢

رسل الله تعالى إليهم ، هم يظلّون يثبتون أنّ الحماقة أعيت من يداويها ، فها هم أولاء يضربون المثل على جهلهم ويقدّمون الدّليل الجديد على سفههم . إنّهم بدلاً من أن يعمدوا إلى أقربٍ بقرة فيذبحوها امتثالاً لأمر الله تعالى ، هم يسألون عن أشياء كلّما بدا لهم منها شيء ساءهم ذلك . وكلّما أجيبوا عن سؤال ، زادهم السؤال سوءًا ؛ لأنّهم كلّ مرّة يشددّون على أنفسهم فيشدّد الله تعالى عليهم . ونتذكر بهذه المناسبة ما جاء فى سورة المائدة من توجيه سماوىّ كريم لأتباع محمّد ﷺ فى مثل هذا الشّأن . قال تعالى[1] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزّلُ القرآنْ تُبْد لكم عفا الله عنها والله غفورٌ حليم . قد سألها قومٌ من قبلكم ثمّ أصبحو بها كافرين ﴾ .

وها هو ذا السؤال الأوّل المتعّلق بحقيقة البقرة وذاتها ، أهمّ صفاتها ونعوتها . قال تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى ﴾ وفى الإمكان أن نتبيّن أكثر من دليل على جهل القوم الّذى وصفهم به ضمناً موسى عليه السّلام . فهم يخاطبون موسى عليه السّلام فى طريقة جافّة خشنة وفى لهجةٍ هى أقرب إلى الأمر منها إلى أىّ شيءٍ آخر بأن يدعو ربّه جلّ وعلا كى يبيّن لهم ما هيّة تلك البقرة . إنّ شعور بنى إسرائيل بالذّات قوىّ وصفة الأنانية فيهم شديدة الظّهور . إنّ القول على لسانهم « لنا » يجئ مرّتين اثنتين ، ولا يتقدم أوّلهما إلاّ جملة « ادع » الّتى موضعها التّقديم . إنّهم هم محور الحديث ، وإنّ دعاء موسى عليه السّلام ربّه هو ، وليس التّعبير هنا مستعملاً ضمير جماعة المتكلّمين الّذى جاء مرّتين اثنتين فى خطابهم القصير لموسى عليه السّلام ، مما يُفْهم معه استعداد القوم للابتعاد عن الطريق القويم والانصراف عنه جلّ وعلا . ولا يخفى ما فى هذه الطّريقة من التّعبير من دلالةٍ على سوء طباع القوم وغلظ أكبادهم . وكلّ ذلك أدلّة على لصوق صفة الجهل بهم ، وهى الصفة الّتى خلعها عليهم موسى عليه السّلام ضمنًا . إنّهم من ذوات أنفسهم قد أعطوا الكثير من الأدلّة على رسوخ صفة السّفه والطيش والحمق فيهم .

---

(١) الآية ١٠١ ، ١٠٢

وقوم موسى عليه السّلام فى القول « ما هى » ومن باب التّشديد على أنفسهم يريدون الحصول على بعض صفات البقرة . ورأفةً من موسى عليه السّلام ورحمةً بقومه يسأل ربّه جلّ وعلا أن يبيّن لهم ما هيّة البقرة . وإنّا لنتبيّن فيما أوحى الله تعالى به لموسى عليه السّلام من صفات البقرة رأفة البرّ الرّحيم بعباده . فليست الصّفة الّتى تذكر فى البقرة إجابةً على هذا السّؤال سوى الصّفة الّتى يسهل تحقّقها فى الكثير والكثير من البقر ﴿ قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ لا فارضٌ ولا بكر عوانٌ بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ وكى تتّضح لنا الرّأفة والرّحمة بصورةٍ أشدّ فى إمكاننا وقد جاء ذكر واحدةٍ من الأنعام فى حديثٍ لنا ونحن مجتمعون ، وأراد بعضنا أن يتعرّف على بعض الصّفات فإنّ أوّل سؤالٍ يتبادر إلى الذّهن غالباً هو السؤال عن السّنّ . إن القوم على الرّغم من كونهم لم يسألوا عن السّنّ فإنّ البرّ الرّءوف الرّحيم يبيّن للقوم أقرب صفات البقرة تناولاً وأشدّها وضوحاً . إنّها صفة السّنّ .

ووراء ذلك نحن نتبيّن فى الجواب أكثر من دليلٍ على غباء القوم وبلادتهم . فنحن نتبيّن أنّ لفظ بقرة يتكرّر فى الجواب ﴿ قال إنّه يقول إنّها بقرة ﴾ وبما أنّ لفظ بقرة يمكن الاستغناء عنه لو أن المخاطبين أذكياء ، ففى ذكره دليلٌ على أنّ القوم أغبياء . ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ ، بل إنّ تعيين سنّ البقرة للقوم يتمّ من أطول طريق وليس من أقصر طريق . وتفسير ذلك أنّ لفظ « عوان » يصحّ أن يفهم منه المخاطبون لو كانوا أذكياء سنّ البقرة ، لأنّ البقرة العوان هى الّتى ولدت بطناً أو بطنين ، وهى أقوى ما تكون من البقر وأحسنه . وحينما تكون البقرة نَصَفًا وبهذه الصّورة تكون متوسّطة فى السّنّ بين الفارض المسنّة الهرمة الّتى انقطعت ولادتها من الكبر وبين البكر الّتى لم تلد والّتى لم تحمل والّتى لم يفتحلها الفحل[1] .

إن الجواب على القوم يتمّ فى أقصى درجات الطّول دليلاً عل بلادة أذهان القوم فهو لا يستغنى عن ذكر لفظ البقرة صراحة ، وهو ينفى عن هذه البقرة صفة الهرم وصفة

---

(١) انظر مثلاً تفسير الطّبرى ١/٢٧١

الصّغر . وهو ينّص على كون السّنّ بينهما . وهو ينصّ على كونها عواناً . إنّ لفظة « عوان » كافية وشافية لو كان القوم يفقهون ويعقلون ويعلمون . ولا يكتفى السّياق بالوصف المستفيض لسن البقرة الّذى يأتى على السّنّ من كلّ جوانبها ، إنّما يردف كلّ ذلك بتأكيد الأمر لهم بأن يفعلوا ما يؤمرون . إنّ فى وصف سنّ البقرة أمراً ضمنياً للقوم بذبحها . وفى تكرير الأمر لهم بالذّبح دليلٌ إضافىّ إلى الأدلّة الكثيرة السّابقة على غفلة القوم وغبائهم .

الآيــة رقــم (٦٩)

قال تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها . قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تسر النّاظرين ﴾ .

صفراء : جمهور المفسرين أنّها صفراء اللّون من الصّفرة المعروفة[١] ولذلك أكّد بالفقوع والسّرور فهى صفراء حتّى القرن والظّلف[٢] تقول العرب : أسود حالك ودَجوجىّ وغِربيب . وأحمر قانى ، وأبيض ناصع . وأخضر ناضر . وأصفر فاقع . هكذا نصّ نقلة اللّغة عن العرب[٣] و لم تنصرف صفراء فى معرفةٍ ولا نكرة ؛ لأنّ فيها ألف التّأنيث ، وهى ملازمةٌ فخالفت الهاء . لأنّ ما فيه الهاء ينصرف فى النّكرة كفاطمة وعائشة[٤] .

الفقوع ، بضم الفاء ، أشدّ ما يكون من الصّفرة وأبلغه . يقال : أصفر فاقع ووارس[٥] فاقع : أى شديد الصّفرة ، قاله ابن عبّاس والحسن . أو الخالص الصّفرة ،

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٨٣ وانظر البحر المحيط ٢٥٢/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٧٤/١ .

(٢) البحر المحيط ٢٥٢/١

(٣) انظر تفسير القرطبى ص ٣٨٣ والبحر المحيط ٢٤٨/١ وتفسير الطّبرىّ ٢٧٤/١

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٣

(٥) البحر المحيط ٢٤٨/١

قاله قطرب . أو الصّافى ، قاله أبو العالية وقتادة[١] ونحن نميل إلى كون الفاقع هو الشّديد الصّفرة . يقول الطّبرىّ[٢] : « والفقوع فى الصّفرة نظير النّصوع فى البياض ، وهو شدته وصفاؤه » .

تسرّ : السّرور لذّة فى القلب عند حصول نفعٍ أو توقّعه[٣] أو رؤية أمر معجبٍ رائق[٤] وتسرّ : تعجب[٥] وقال وهب بن منبّه : إذا نظرت إلى جلدها تخيّلت أنّ شعاع الشّمس يخرج من جلدها[٦] ولهذا قال ابن عبّاس : الصّفرة تسرّ النّفس[٧] وجمهور المفسّرين يشيرون إلى أنّ الصّفرة من الألوان السّارّة . ولهذا كان علىّ كرّم الله وجهه يرغب فى النّعال الصّفر . وقال ابن عبّاس : الصّفرة تبسط النّفس وتذهب الهمّ . وكان ابن عبّاس أيضاً يحضّ على لبس النّعال الصّفر[٨] .

وجاء هذا الوصف ﴿ تسرّ النّاظرين ﴾ بالفعل و لم يجىء باسم الفاعل لأنّ الفعل يشعر بالحدوث والتّجدّد . ولمّا كان لونها من الأشياء الثّابتة الّتى لا تتجدّد جاء الوصف به بالاسم لا بالفعل . وتأخّر هذا الوصف عن الوصف قبله لأنّه ناشئٌ عن الوصف قبله أو كالنّاشئ لأنّ اللّون إذا كان بهجاً جميلاً دهشت فيه الأبصار وعجبت من حسنه البصائر . وجاء بوصف الجمع فى النّاظرين يوضّح أنّ أعين النّاس طامحة إليها متلذّذة فيها بالنّظر فليست ممّا تعجب شخصاً دون شخص ، ولذلك أدخل الألف واللاّم الّتى تدلّ على الاستغراق . أى هى بصدد من نظر إليها سرّ بها[٩] يعنى بقوله : تسرّ النّاظرين : تعجب هذه البقرة فى حسن خَلْقِها ومنظرها وهيئتها النّاظر إليها[١٠] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٥٢

(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٤ وانظر اللّغة وسرّ العربيّة للثّعالبى ص ١٠٦ فصل فى الإشباع والتّأكيد .

(٣) الكشّاف ١/٢٢٠ والبحر المحيط ١/٢٤٩

(٤) البحر المحيط ١/٢٤٩

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٤ وتفسير ابن كثير ١/١١١

(٦) تفسير ابن كثير ١/١١١ وتفسير القرطبى ص ٣٨٣ وتفسير الطّبرىّ ١/٢٧٤

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٣

(٨) البحر المحيط ١/٢٥٣

(٩) البحر المحيط ١/٢٥٣

(١٠) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٤

بعد أن طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السّلام رسول الله تعالى إليهم الّذى بيّن لهم أنّ الله سبحانه وتعالى يأمرهم بأن يذبحوا بقرة ، أن يبيّن لهم ماهيّتها فبيّن لهم بإيحاءٍ من ربّه جلّ وعلا أهمّ صفات تلك البقرة وهى المتعلّقة بسنّها وكونها عواناً ولدت مرةً أو مرّتين ، تحوّل بنو إسرائيل إلى طلبٍ آخر متعلّقٍ هذه المرّة بلون البقرة . إنّ بنى إسرائيل قوم موسى عليه السّلام ، بدلاً من أن يبادروا إلى ذبح أىّ بقرةٍ تتحقّق فيها هذه الصّفة ، فما أكثر البقر الّتى ولدت مرّةً بعد مرّة وما أسهل الحصول عليها وتناولها ، هم لالتواء فطرهم لا ينظرون إلى هذا التّسهيل والتّيسير وإلى رحمة الله تعالى ورأفته بهم حيث قد كان النّصّ من بين صفات البقرة على أقربها تناولاً وأيسرها هم لا ينظرون إلى كلّ ذلك من جانبه الواسع بل يتعمّدون إلى النّظر إليه من جانبه غير الواسع الّذى يمكن أن يئول إليه . إنّهم نظروا إلى التّيسير والتّسهيل واختيار أقرب الصّفات وعدم التّقييد باعتباره غير مقيّدٍ لهم بنوعٍ معيّن من البقر ولا ملزمٍ لهم ببقرةٍ بعينها من ذلك النّوع ، وهم إنّما يريدون تحقيق كلّ الصّفات المطلوبة . ولمّا كان السّؤال المتبادر إلى كلّ ذهن بعد معرفة سنّ البقرة هو المتعلّق بلونها ، فبهذا جرى العُرْف بيننا بأنّا بعد معرفة سنّ الحيوان الّذى نريد الحصول عليه ، وما أسهل ذلك ، نتحول إلى المقارنة بين الألوان . وإنّ بنى إسرائيل الّذين شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله تعالى عليهم يسألون موسى عليه السّلام فى الطّريقة الفظّة المعتادة ذاتها : ﴿ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما لونها ﴾ .

ومن البيّن أنّ بنى إسرائيل إنّما شدّدوا على أنفسهم ، وقد كان فى إمكانهم كما جاء فى الحديث الشّريف أن يذبحوا أىّ بقرة ، بدلاً من هذه الأسئلة الّتى يبدو وكأنّها لا تريد أن تنتهى . وقد شاءت إرادة الله تعالى أن تشدّد على هؤلاء الّذين شدّدوا على أنفسهم . وهنا نتبيّن أنّ تعيين اللّون لا يتّجه إلى أكثر الألوان شيوعاً وأقربها تناولاً ، بل إلى أقلّ الألوان ذيوعاً وأبعدها حصولاً . وفى ضوء إلحاف بنى إسرائيل فى الأسئلة ممّا يصحّ أن يفهم معه قصور إدراك القوم ، خاصّةً وقد خفيت عليهم الحكمة من التّسهيل فى الأمر بذبح أىّ بقرة ومن تعيين الصّفة السّهلة التّناول فى البقر ، فى ضوء ذلك نتبين أنّ الجواب يتضمّن من العناصر ما يصحّ أن يسدّ بكلّ عنصر أحد المنافذ الّتى يمكن أن يتسلّل خلالها

بنو إسرائيل بالأسئلة الّتى لا حصر لها . إنّ ما سبق أن قلنا بشأن القول ﴿ قال إنّه يقول إنّها بقرة ﴾ فى الدّلالة على غباء القوم وقصر إدراكهم وبلادة إحساسهم يقال هنا . وبعد أن توصف البقرة بأنّها صفراء ، وذلك فى حدّ ذاته كافٍ وشافٍ لو أنّ القوم يفقهون ، يردف السّياق بتبيين شدّة صفرة لونها . وكأنّ هذه الإضافة ﴿ فاقعٌ لونها ﴾ تريد أن تسدّ على القوم ما أمكن من منافذ يمكن أن ينفذ منها القوم بأسئلتهم ، وكأنّها تريد أن تقول إنّ القوم لو قيل لهم إنّ البقرة صفراء اللّون لتساءلوا : وهل هى شديدة الصّفرة أو قليلتها أو معتادتها ؟ وهل هى خالصة الصّفرة وصافيتها أو مشوبتها ؟ وهل هى معجبة الصّفرة حلوتها أو هى بعكس ذلك ؟ إن السّياق يسدّ كلّ المنافذ الّتى يمكن لقوم موسى عليه السّلام أن يجدوا منها طريقاً لأسئلتهم الّتى ليس وراءها سوى التّشديد على أنفسهم . فليست البقرة صفراء اللّون فقط ، وفى هذا التّعيين الجواب على سؤال القوم ، بل إنّها وراء ذلك شديدة الصّفرة نقيّتها وخالصتها . وبما أنّ اللّون الأصفر الخليق بهذا الاسم يسرّ النفس بطبعه ويبهجها ، فإنّ الجواب يسعى إلى اشتمال أثر ذلك اللّون وتغطيته ، مرتقيًا بذلك الأثر على النّفس إلى أرفع الدّرجات . إنّ البقرة ذات اللّون الأصفر الشديد الصّفرة الصّافى الخالص لا تسرّ فقط بعض من ينظر إليها ، ولكنها تسرّ كلّ من نظر إليها ، تملأ عينه بهجة ، ونفسه سرورا ، وصدره بشرا وحبورا .

لقد جرت العادة بأنّ الشّىء الجميل الّذى يُجمع النّاظرون إليه على جماله والّذى تسرّ به نفوس كلّ النّاظرين إليه ، ينبغى أن يكون كامل الجمال أو قريباً من كماله ، أو أن يكون أجمل مرئيّ فى بابه وفى ميدانه . وحينما تكون تلك البقرة الّتى تلك سنّها وصفاتها وذلك لونها وجمالها ، قادرة على إدخال السّرور فى أعماق كلّ نفسٍ عن طريق كلّ عينٍ ناظرةٍ إليها ، فذلك دليلٌ على أنّها بقرةٌ عزيزة المنال نادرة المثال . وهكذا شدّد بنو إسرائيل على أنفسهم فشدّد الله تعالى عليهم . ويلاحظ أنّ خلوص لون البقرة يصحّ أن نفهمه كذلك فى الآية الكريمة التّالية وذلك فى القول : ﴿ لا شية فيها ﴾ على نحو ما سنرى إن شاء الله تعالى .

الآيــة رقــم (٧٠)

قال تعالى : ﴿ قالوا ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هى إنّ البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ .

البَقَرُ جِماع بقرة[١] قال قطرب : جمع البقرة باقر وباقور وبقر[٢] وقال الزّجّاج : « المعنى : إنّ جنس البقر .... والبقر الباقر والبيقور والبقير لغات بمعنىً والعرب تذكّره وتؤنّثه وإلى ذلك ترجع معانى القراءات فى تشابه »[٣] ويقول الطّبرىّ[٤] : « وأما تأويل تشابه علينا فإنّه يعنى به التبس علينا . والقرّاء مختلفة فى تلاوته . فبعضهم كانوا يتلونه تشابه علينا بتخفيف الشّين ونصب الهاء على مثال تفاعل ، ويذكّر الفعل وإن كان البقر جِماعا ، لأنّ من شأن العرب تذكير كلّ فعل جمع كانت وحدانه بالهاء وجمعه بطرح الهاء وتأنيثه ، كما قال الله تعالى فى نظيره فى التّذكير : كأنّهم أعجاز نخلٍ منقعر ، فذكّر المنقعر وهو من صفة النّخل لتذكير لفظ النّخل . وقال فى موضعٍ آخر : كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية . فأنّث الخاوية وهى من صفة النّخل بمعنى النّخل ؛ لأنّها وإن كانت فى لفظ الواحد المذكّر على ما وصفنا قبل فهى جِماع نخلة ..... والصّواب فى ذلك من القراءة عندنا : إنّ البقر تشابه علينا بتخفيف شين تشابه ونصب هائه بمعنى تفاعل لإجماع الحجّة من القرّاء على تصويب ذلك ورفعهم ما سواه من القراءات » .

وقيل : إنّما قالوا : إنّ البقر تشابه علينا ، لأنّ وجوه البقر تتشابه . ومنه حديث حذيفة بن اليمان عن النّبىّ ﷺ أنّه ذكر فِتناً كقطع اللّيل تأتى كوجوه البقر ، يريد أنّها يشبه بعضها بعضاً . ووجوه البقر تتشابه وكذلك قالت بنو إسرائيل : إنّ البقر تشابه علينا[٥] .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٧
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٤
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٤
(٤) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٧
(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٤

وإنّا إن شاء الله لمهتدون : استثناء منهم . وفى استثنائهم فى هذا السؤال الأخير إنابةٌ مّا وانقياد ودليل ندم على عدم موافقة الأمر[١] وروي أنّ النّبىّ ﷺ كان يقول : إنّما أُمِرَ القوم بأدنى بقرة ولكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شُدِّدَ عليهم والّذى نفس محمّدٍ بيده لو لم يستثنوا لما بيّنت لهم آخر الأبد[٢] أى لو لم يقولوا إن شاء الله[٣] .

وجاء خبر إنّ اسماً لأنّه أدلّ على الثّبوت وعلى أنّ الهداية حاصلةٌ لهم . وأكدّ بحرفى التّأكيد إنّ واللاّم[٤] وقد زال اللّبس بتبيين السّنّ واللّون والعمل[٥] .

أثبت قوم موسى عليه السّلام أنّهم حقاً سفهاء حينما ظنّوا أن موسى عليه السّلام قد اتّخذهم هزواً حينما قال لهم إنّ الله سبحانه وتعالى يأمرهم أن يذبحوا بقرة . وقد أكدوا هذه الصّفة حينما شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله تعالى عليهم . ونحن نتبيّن أنّ بنى إسرائيل فى أسئلتهم المتعلّقة بالبقرة لا يسألون ابتداءً عن شيءٍ معيّن من صفاتها . وحينما سألوا أوّل الأمر عن ماهيّتها ، وهو ذات السّؤال الثّالث ، كان الجواب دليلاً على رحمة الله تعالى ورأفته بهم ، فقد كان الجواب مشتملاً على أكثر الصّفات شيوعاً ، وأقربها تناولاً . وقد دفعهم تشديدهم إلى السّؤال عن لون البقرة . ولو لم يحدّد الجواب الأوّل سنّ البقرة لما برزت الحاجة لديهم إلى معرفة لون البقرة الّذى سألوا عنه . وها هم أولاء يطرحون السّؤال الثّالث الّذى هو فى حقيقته ذات السّؤال الأوّل . وهذا السؤّال عن ماهيّة البقرة . فلا زالت البقرة غير واضحة الصّفات كلّها لدى القوم . ويؤكّدون عدم وضوح صفات البقرة بالقول : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ وكلّ ذلك دليلٌ على بلادة إدراك القوم . إنّ البقر تشابه على القوم رغم كلّ الصّفات الّتى بيّنها الحقّ جلّ وعلا للبقرة . ومع أنّ البقر بطبعها تتشابه فإنّ القوم ملومون بسبب تشدّدهم على أنفسهم وتعنّتهم على رسل الله تعالى إليهم .

وإذا كان هذا القول على لسان القوم : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ يشى بإحساس

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٤
(٢) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٦
(٣) الكشّاف ١/٢٢١
(٤) البحر المحيط ١/٢٥٤
(٥) البحر المحيط ١/٢٥٣

القوم بالخطأ الّذى ارتكبوه وتورّطوا فيه فى حقّ أنفسهم ، فإنّه فى الوقت ذاته موطّئٌ لما ألهمهم الله تعالى به من استثنائهم وتعليق اهتدائهم بالمشيئة الإلـٰهيّة وذلك فى القول على لسانهم : ﴿ وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقد شاءت العناية الإلـٰهيّة الّتى قدّرت للقوم الهداية وزوال كل لبسٍ وغموضٍ فى شأن البقرة ، شاءت هذه العناية أن تبيّن لهم مجموعةً من الصّفات الّتى كانت كفيلةً بإرادة الله تعالى أن تهدى القوم إلى السَّبيل القويم بامتثال أمر الله تعالى وذبح البقرة المطلوبة . وقد كانت هذه الصّفات فى الآية الكريمة التّالية .

ووراء ربط القوم الاهتداء بالمشيئة الإلـٰهيّة ، نحن نتبيّن حرصهم الأكيد على ذلك الاهتداء حيث يجئ على لسانهم كلٌّ من « إنّ » واللاّم اللّذين يفيدان التّوكيد وذلك فى القول على لسانهم : ﴿ وإنّا أن شاء الله لمهتدون ﴾ .

وهذه هى الآية الكريمة الّتى تتضمّن المجموعة الأخيرة من صفات البقرة الّتى اهتدى بسببها القوم بمشيئة الله تعالى . وعماد هذه الصّفات عمل هذه البقرة وبيان هل هى سائمة أم عاملة .

الآيــة رقــم (٧١)

قال تعالى : ﴿ قال إنّه يقول إنّها بقرةٌ لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلَّمةٌ لاشية فيها . قالوا الآن جئت بالحقّ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ .

الذّلول : الرّيّض الّذى زالت صعوبته . يقال : دابّة ذلول[1] أى بقرةٌ مذلّلة بيّنة الذّلّ بكسر الذّال . ورجلٌ ذليل بيّن الذّلّ بضمّ الذّال ، أى هى بقرةٌ صعبةٌ غير ريّضة لم تذلّل بالعمل[2] وإذا كان الوصف قد نفى بلا لزم تكرار لا النّافية لما دخلت عليه تقول : مررت برجلٍ لا كريمٍ ولا شجاع . وقال تعالى : ﴿ ذى ثلاث شعب . لا ظليلٍ ولا يغنى من اللّهب ﴾ . ﴿ وظلٍّ من يحموم لا باردٍ ولا كريم ﴾ . ﴿ لا فارضٌ ولا بكر ﴾ ولا يجوز أن تأتى بغير تكرار ؛ لأنّ المستفاد منها النفى[3] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤٩

(٢) تفسير القرطبى ص ٣٨٥

(٣) البحر المحيط ١/٢٥٥

تثير الأرض : تقلب الأرض للحرث . يقال منه . أثرت الأرض أثيرها إثارةً إذا قلبتها للزّرع . وإنّما وصفها جلّ ثناؤه بهذه الصّفة لأنّها كانت فيما قيل وحشية[١] وإثارة الأرض تحريكها وبحثها ومنه الحديث : أثيروا القرآن فإنّه علم الأوّلين والآخرين . وفى روايةٍ أخرى : من أراد العلم فليثوّر القرآن .... وفى التّنزيل : وأثاروا الأرض ، أى قلبوها للزّراعة[٢] ويقول القرطبىّ[٣] : « قوله تعالى:تثير الأرض . تثير فى موضع رفعٍ على الصّفة للبقرة ، أى هى بقرة لا ذلولٌ مثيرة » ويقول أبو حيّان[٤] : « وتثير الأرض صفة لذلول . وهى صفةٌ داخلةٌ فى حيّز النّفى . والمقصود نفى إثارتها الأرض أى لا تثير فتذلّ فهو من باب :

على لا حِبٍ لا يُهْتَدَى بمناره

اللّفظ نفى الذّل والمقصود نفى الإثارة فينتفى كونها ذلولاً » .

ولا تسقى الحرث : نفىٌ معادل لقوله : لا ذلول . والجملة صفة . والصّفتان منفيّتان من حيث المعنى ، كما أنّ تسقى منفىٌّ من حيث المعنى أيضاً . ومعنى الكلام أنّها لم تذلّل بالعمل لا فى حرثٍ ولا فى سقى ، ولهذا نفى عنها إثارة الأرض وسقيها[٥] .

الحرث : الأرض المهيّأة للزّراعة[٦] والحرث : مصدر حرث يحرث ، وهو شقّ الأرض ليبذر فيها الحبّ ، ويطلق على ما حرث وزرع . وهو مجاز فى : نساؤكم حرثٌ لكم . والحرث الزّرع والحرث الكسب .... وفى الحديث : أصدق الأسماء الحارث لأنّ الحارث هو الكاسب . واحتراث المال اكتسابه[٧] .

مسلّمة مفعّلة من السّلامة[٨] وهى المخلّصة المبرّأة من العيوب . سلّم له كذا أى خلّص سلاماً وسلامة مثل اللّذاذ واللّذاذة[٩] قال ابن عبّاس وقتادة وأبو العالية ومقاتل :

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٩
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٥
(٣) تفسير القرطبى ص ٣٨٥
(٤) البحر المحيط ١/٢٥٥
(٥) البحر المحيط ١/٢٥٥
(٦) الجلالين
(٧) البحر المحيط ١/٤٤٩
(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٢٧٩
(٩) البحر المحيط ١/٢٤٩

مسلّمة من العيوب[١] وقال ابن عبّاس : قوله مسلّمة : لا عوار فيها[٢] ويقول القرطبيّ[٣] : « أي هي مسلّمة . ويجوز أن يكون وصفاً أي إنّها بقرةٌ مسلّمة من العرج وسائر العيوب . قاله قتادة وأبو العالية » .

لاشية فيها : أي ليس فيها لون يخالف معظم لونها . هي صفراء كلّها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد كما قال : فاقعٌ لونها[٤] والشيّة مصدر وشي الثّوب يشيه وشياً وشية حسّنه وزيّنه بخطوط مختلفة الألوان[٥] وثورٌ موشّى : في وجهه وقوائمه سواد . قال ابن عرفة : الشّية اللّون . ولا يقال لمن نمّ واشٍ حتّى يغيّر الكلام ويلوّنه فيجعله ضروباً ويزيّن منه ما شاء[٦] ويحسّن كذبه حتّى يقبل[٧] يقال منه : وشيت به إلى السّلطان وشاية . ومنه قول كعب بن زهير :

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم   إنّك يا بن أبي سلمى لمقتول

والوشاة جمع واش . يعني أنّهم يتقوّلون بالأباطيل ويخبرونه أنّه إن لحق بالنّبيّ ﷺ قتله[٨] ويقال : فرسٌ أبلق . وتيسٌ أخرج . وكبشٌ أملح . وثورٌ أشيه . وغرابٌ أبقع[٩] كلّ ذلك بمعنى البلقة . هكذا نصّ أهل اللّغة[١٠] وثورٌ موشّى : في وجهه وقوائمه سوادٌ كما سبق[١١] ومنه ثورٌ موشيّ القوائم . قال الشاعر :

من وحش وجرة مُوشِيّ أكارِعُهُ   طاوي المصير كسيف الصَّيْقَل الفَرِدِ[١٢] .

---

(١) انظر البحر المحيط ١/٢٥٧ وتفسير الطّبريّ ١/٢٧٩

(٢) تفسير الطّبريّ ١/٢٧٩   (٣) تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦

(٤) تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦ .

(٥) البحر المحيط ١/٢٤٩ وانظر الكشاف ١/٢٢١ يقال وشي الثوبَ كوعى ووشّاه بالتّشديد .

(٦) تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦   (٧) انظر البحر المحيط ١/٢٤٩

(٨) تفسير الطبريّ ١/٢٧٩

(٩) فقه اللّغة وسرّ العربيّة للثّعالبي ص ١٠٥ وانظر تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦ .

(١٠) تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦   (١١) تفسير القرطبيّ ص ٣٨٦

(١٢) البحر المحيط ١/٢٤٩ والبيت للنّابغة الذّبيانيّ من معلّقته . وجرة مكان بين مكّة والبصرة فيه وحوش كثيرة . الأكارع : القوائم . طاوي : ضامر . المصير : البطن . الصّيقل : جلاّء السّيوف . الفرد : الّذي لا مثيل له في الجودة . انظر مختار الشّعر الجاهليّ ١/١٥٠ .

الآن : ظرف زمان حضر جميعه أو بعضه . والألف واللاّم فيه للحضور[١] وانتصابه على الظّرفية وهو يدل على الوقت الحاضر[٢] قال الزّجّاج : الآن مبنيٌّ على الفتح لمخالفته سائر ما فيه الألف واللاّم . لأنّ الألف واللاّم دخلتا لغير عهد . تقول : أنت إلى الآن هنا . فالمعنى إلى هذا الوقت ، فبنيت كما بُنِى هذا ، وفتحت النّون لالتقاء السّاكنين . وهو عبارةٌ عمّا بين الماضى والمستقبل[٣] .

جئت بالحقّ : بيّنته[٤] ونطقت به[٥] وبحقيقة وصف البقرة وما بقى إشكالٌ فى أمرها[٦] .

وما كادوا يفعلون : كاد فى الثّبوت تدلّ على المقاربة ، فإذا قلت : كاد زيدٌ يقوم فمعناه مقاربة القيام و لم يتلبّس به . فإذا قلت : ما كاد زيدٌ يقوم فمعناه نفى المقاربة فهى كغيرها من الأفعال وجوباً ونفياً ..... المعنى : وما قاربوا ذبحها قبل ذلك ، أى وقع الذّبح بعد أن نَفَى مقاربته . فالمعنى أنّهم تعسّروا فى ذبحها ثمّ ذبحوها[٧] ويقول ابن جرير[٨] : « ويعنى بقوله : وما كادوا يفعلون ، أى قاربوا أن يدعوا ذبحها ويتركوا فرض الله عليهم فى ذلك » عن ابن عبّاس : كادوا ألاّ يفعلوا ، و لم يكن ذلك الّذى أرادوا ، لأنّهم أرادوا ألاّ يذبحوها . يعنى أنّهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلاّ بعد الجهد ، وفى هذا ذمٌّ لهم ، وذلك أنّه لم يكن غرضهم إلا التّعنّت فلهذا ما كادوا يذبحونها[٩] قال القرظىّ محمّد بن كعب : لغلاء ثمنها . وقيل خوفاً من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم . قاله وهب بن منبّه[١٠] وقيل إنّهم

---

(١) البحر المحيط ٢٤٩/١
(٢) انظر البحر المحيط ٢٥٧/١
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٧
(٤) انظر تفسير الطّبرىّ ٢٨٠/١ وتفسير القرطبى ص ٣٨٧
(٥) انظر البحر المحيط ٢٥٧/١
(٦) الكشّاف ٢٢١/١
(٧) البحر المحيط ٢٥٨/١
(٨) تفسير الطّبرىّ ٢٨١/١
(٩) تفسير ابن كثير ١١١/١
(١٠) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٧

اشتروا البقرة من الشّاب البارّ بأبويه . وهذا الّذى تظافرت عليه أقاويل أكثر المفسّرين[١] أو البارّ بأمّه[٢] أو بأبيه[٣] ويقال إنّهم دفعوا فى ثمنها مبلغاً كبيراً من المال . والله أعلم .

وقد علّق ابن كثير على الإسرائيليّات فى شأن قصّة البقرة بالقول[٤] : « وهذه السّياقات عن عبيدة وأبى العالية والسّدىّ وغيرهم فيها اختلافٌ . الظّاهر أنّها مأخوذةٌ من كتب بنى إسرائيل ، وهى ممّا يجوز نقلها ولكن لا تصدّق ولا تكذّب فلهذا لا يعتمد عليها إلاّ ما وافق الحقّ عندنا . والله أعلم » .

وعلى عادة موسى عليه السلام فى سؤاله ربّه بشأن كلّ أسئلة بنى إسرائيل فى حقّ البقرة ، سأل ربّه جلّ وعلا أن يبيّن لهم ماهيّة البقرة . ومن مظاهر رحمته جلّ وعلا ورأفته بعبده المصطفى موسى عليه السّلام وببنى إسرائيل يبيّن لهم ربّ العزّة كلّ الصّفات الباقية الكفيلة بإزالة كلّ لبس فى شأن البقرة خاصّةً وأنّ القوم قد علّقوا الاهتداء بمشيئة الله تعالى .

ولو أنّا تمثّلنا سائلاً بل ملحفاً فى السّؤال بشأن صفات بقرةٍ مّا ، وقد تبيّن له سنّها ولونها ، ومعروفٌ أنّ ثمّة عملين رئيسيّين لجنس البقر ، الحرث والسّقى من ناحية ، والحصول على الغذاء من ناحيةٍ أخرى ، ويرتبط الأمر الأوّل أكثر بالبقرة العاملة ، ويرتبط الأمر الثّانى أكثر بالبقرة السّائمة ، فإنّ المتبادر إلى الذّهن أنّ تبيين حال البقرة أمرٌ ضرورىّ . ويلاحظ أنّ القوم أنفسهم ليسوا على علمٍ بالصّفة أو الصّفات المتبقّية كى تعرف البقرة على حقيقتها ، ولهذا هم يكرّرون ذات السؤال الأوّل ، وإن كانوا قد أضافوا إلى الطّلب تبييناً لسببه وتعليقاً للاهتداء بالمشيئة ﴿ إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وتشاء إرادة الله تعالى لهم الهداية فتشملهم رحمة البرّ الرّحيم . فلنتدبّر مظاهر هذه الرحمة .

وأوّل ما يلاحظ هو تكرار لفظة « بقرة » على نحو ما جرت به العادة من قبل وللسّبب

---

(١) البحر المحيط ١/٢٥٨
(٢) تفسير الطّبرى ١/٢٨١
(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٦٩
(٤) تفسير ابن كثير ١/١١٠

نفسه فلا زال القوم متأخّرى الإدراك .

ويلاحظ وراء ذلك أنّ المراد من القول ﴿ لا ذلولٌ تثير الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أنّها بقرةٌ سائمة لا عاملة . والآية الكريمة تعبّر عن هذا المعنى بأطول عبارةٍ ممكنة نافيةٍ عن البقرة صفة العمل عن طريق نفى أهمّ عنصرين فيه وهما حرث الأرض أى إثارتها بقصد تهيئتها للزّراعة . وسقى الأرض المحروثة المهيّئة الّتى ألقيت فيها البذور بقصد الحصول على الزّرع . وقد جاء فى سورة الواقعة[1] قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون . إنّا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ إنّ البشر يستطيعون عن طريق الانتفاع بجنس البقر أو غيره إثارة الأرض وحرثها وسقيها ، وعلى الله تعالى وحده لا شريك له إخراج الزّرع .

وحينما ينفى عن البقرة أهمّ عملين لها ينفى عنها صفة العمل كى يفهم بعد ذلك أنّها بقرة سائمة . إنّ من مظاهر رحمة الله تعالى ببنى إسرائيل تفصيل جانب النفى فى الجواب وهو العمل ، كى يبقى الجانب المثبت وهو كون البقرة سائمة ، وذلك دليلٌ على قصور إدراك القوم ، وكأنّ فى التّفصيل والتّطويل سدّاً للمنافذ الّتى يمكن أن ينفذ منها القوم بأسئلتهم ، وذلك دليلٌ على تعنّتهم وعنادهم .

ولا تقف رحمة الله تعالى عند تجاوز اللّفظة المفردة « سائمة » فى الجواب لأنّ القوم لا يفقهون ، إنّما تتجاوز ذلك إلى سدّ المنفذ الّذى يمكن أن ينفذ القوم منه بسؤالٍ آخر يتبيّنون عن طريقه السّبب فى كون البقرة سائمةً وليست عاملة ، وتتجلّى هذه الرّحمة فى القول : ﴿ مسلّمة ﴾ والمراد أنّها مسلّمة من كلّ مرض بريئة من كلّ عيب . فهى ليست عاملة لأنّها سائمة وليس لأنّها مريضة أو معيبة . ويفهم وراء ذلك من القول « مسلّمة » أنّ ما يذبح لله تعالى ينبغى أن يكون من أصحّ الموجود وأسلمه وأحسنه .

وتبلغ رحمة الله تعالى النّهاية حينما تقرّر الآية الكريمة آخر صفةٍ للبقرة ، يبدو أنّها تحوك فى صدور القوم وتكاد تغمغم بها ألسنتهم ألا وهى المتعلّقة بلون البقرة الشّديد الصّفرة . هل هى بقرة خالصة الصّفرة الشّديدة ، أم أنّها بقرةٌ موشّاة القوائم والجبهة ، أو إحداهما ،

---

(١) الآيات ٦٣ — ٦٧

باللّون الأسود أو بغيره من الألوان ؟ إنّ أمثال هذه المعانى قد أجيب عن كلّ الأسئلة المحتملة بشأنها وذلك فى القول : ﴿ لا شية فيها ﴾ أى ليس فيها لون يخالف معظم لونها . هى صفراء كلّها لا بياض فيها ولا حمرة ولا سواد ولا أىّ لون آخر .

أما وقد شاء الله تعالى ، مظهراً من مظاهر رحمته جلّ وعلا بالقوم ، إن يبيّن لهم كلّ الصّفات المطلوب توافرها فى البقرة ، الصّفات الّتى سألوا عنها والّتى لم يسألوا ، فقد جاء على ألسنة القوم قوله تعالى : ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ والمعنى أنّك يا موسى جئت الآن بكامل صفات البقرة ، و لم يبق فى هذه اللّحظة أىّ إشكال يتعلّق بنعوتها . ويلاحظ أنّه يجىء القول : « جئت » وليس « أتيت » والمعروف أنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب ، سواء كان القرب زمانيًّا أو مكانيًّا أو معنويًّا . وهذا معناه المجىء الفعلىّ والوصول الأكيد لتلك الصّفات وحصول القوم الكامل عليها وزوال كلّ شبهةٍ متعلّقةٍ بها .

وبحث القوم عن البقرة الّتى تلك صفاتها ، وحصلوا عليها ، وذبحوها امتثالاً لأمر الله تعالى .

وإنّ من مظاهر رحمة الله تعالى بالقوم أن تكون البقرة الّتى تلك صفاتها موجودةً فعلاً ، وأن يكون فى استطاعة القوم شراؤها وإن دفعوا فيها مبلغاً كبيراً من المال فيما يقال رحمةً من الله تعالى بالابن البارّ بأبويه .

وتقرّر الآية الكريمة فى التّذييل ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ أنّ القوم ما كادوا يفعلون ما أمرهم الله تعالى به من ذبح البقرة . إنّ مجرّد الاقتراب من احتمال ذبحهم البقرة كان بعيداً عنهم لولا رحمة الله تعالى الّتى شملتهم بالإجابة عن كلّ أسئلتهم والّتى تُوِّجَتْ بإلهامهم تعليق الاهتداء بمشيئة الله تعالى . إن مجرّد الاقتراب من احتمال فعلهم ما أمروا به كان منفيًّا بسبب حمقهم حينما ظنّوا أنّ موسى عليه السّلام يتّخذهم هزواً وسخرية حينما يقول لهم إنّ الله تعالى يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وبسبب تعنّتهم حينما يريد الله تعالى بهم اليسر ويريدون بأنفسهم العُسْر ، حينما يشدّدون فيشدّد الله تعالى عليهم . إنّ القوم بفضل الله تعالى وبرحمته لم يقاربوا فقط امتثال أمر الله تعالى بذبح البقرة ، إنّما تجاوزوه

إلى الامتثال فعلاً لأمر الله تعالى فذبحوا البقرة ذات الصّفات العجيبة النّادرة الّتى كان وجودها والقدرة على شرائها ورضا صاحبها ببيعها ، كلّ ذلك من مظاهر رحمة الله تعالى ورأفته بالقوم .

الآيــة رقــم (٧٢ ، ٧٣)

قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسًا فادّارأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها . كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلّكم تعقلون ﴾ .

وإذ قتلتم نفساً : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفساً[1] .

وسبق أن بيّنّا أنّ كلّ نعمةٍ من النّعم الّتى امتنّ الله تعالى بها على بنى إسرائيل تبدأ بالقول : « وإذ » كما بيّنّا أنّ ترتيب النّعم قد روعى فيه التّرتيب الزّمنىّ ، وبناءً على ذلك قرّرنا أنّا نميل إلى كون القصّتين اللّتين تتحدّثان عن ذبح البقرة وعن ضرب القتيل ببعضها قد حدثنا بهذا التّرتيب ، فليس ثمّة سببٌ موجب للذّهاب إلى كون القصّة الأولى المتقدّمة تلاوةً متأخّرةً زمنا . ولا زلنا نقرّر هذا الرّأى . ويقول أبو حيان[2] فى هذا الشأن : « ويجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما ، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة فذبحوها ، وهم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السّرّ . ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله : اضربوه ببعضها . ولا شىء يضطرّنا إلى اعتقاد تقدّم قتل القتيل ثمّ سألوا عن تعيين قاتله إذ كانوا قد اختلفوا فى ذلك .... وإنّما حمل من حمل على خلاف الظّاهر اعتبار ما رووا من القصص الّذى لا يصحّ إذ لم يرد به كتابٌ ولا سنّة . ومتى أمكن حمل الشّىء على ظاهره كان أولى إذ العدول عن الظّاهر إلى غير الظّاهر إنّما يكون لمرجّحٍ ولا مرجّح ، بل تظهر الحكمة البالغة فى تكليفهم أوّلاً ذبح بقرة ، هل يمتثلون ذلك أم لا ؟ وامتثال التّكاليف الّتى لا يظهر فيها بادئ الرأى حكمة أعظم من امتثال ما تظهر فيه حكمة

---

(١) تفسير الطّبرى ١/٢٨٢ (٢) البحر المحيط ١/٢٥٨

لأنّها طواعيةٌ صرف وعبوديةٌ محضة ، واستسلامٌ خالص ، بخلاف ما تظهر له حكمة فإنّ فى العقل داعيةً إلى امتثاله وحضّاً على العمل به » وخوطبت الجماعة لوجود القتل فيهم[١] فادّارأتم فيها : يعنى فاختلفتم وتنازعتم[٢] « وإنّما أصل فادّارأتم فتدارأتم ، ولكنّ التّاء قريبةٌ من مخرج الدّال وذلك أنّ مخرج التّاء من طرف اللّسان وأصول الشّفتين ، ومخرج الدّال من طرف اللّسان وأطراف الثنيّتين ، فأدغمت التّاء فى الدّال فجعلت دالاً مشدّدة ..... فلمّا أدغمت التّاء فى الدّال فجعلت دالاً مثلها سكّنت فجلبوا ألفًا ليصلوا إلى الكلام بها ، وذلك إذا كان قبله شيء لأن الإدغام لا يكون إلاّ وقبله شيء ، ومنه قول الله جلّ ثناؤه : حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً ، إنّما هو تداركوا ولكنّ التّاء منها أدغمت فى الدّال فصارت دالاً مشدّدة وجعلت فيها ألف إذا وصلت بكلامٍ قبلها ليسلم الإدغام ، وإذا لم يكن قبل ذلك ما يواصله وابتدئ به قيل : تداركوا وتثاقلوا فأظهروا الإدغام وقد قيل : يقال : ادّراكو وادّارأوا . وقد قيل إنّ معنى قوله : فادّارأتم فيها فتدافعتم فيها من قول القائل : درأت هذا الأمر عنّى ، ومن قول الله : ويدرأ عنها العذاب ، بمعنى يدفع عنها العذاب »[٣] ويحتمل هذا التّدارؤ وهو التّدافع أن يكون حقيقةً ، وهو أن يدفع بعضهم بعضاً بالأيدى لشدّة الاختصام . ويحتمل بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض فدفع المطروح عليه ذلك إلى الطّارح ، أو بأن دفع بعضهم بعضاً بالتّهمة والبراءة[٤]

والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون : « ما منصوب باسم الفاعل وهو موصول معهود فلذلك أتى باسم الفاعل لأنّه يدلّ على الثّبوت . و لم يأت بالفعل الّذى هو دالٌّ على التّجدّد والتّكرار »[٥] ويعنى بقوله : والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون : والله معلنٌ ما كنتم تسرّونه من قتل القتيل الّذى قتلتم ثمّ ادّارأتم فيه[٦] والظّاهر أنّ المعنى : ما كنتم تكتمونه من أمر القتيل وقاتله[٧] .

---

(١) الكشّاف ١/٢٢١
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢٨٢
(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٢ ، ٢٨٣ -
(٤) البحر المحيط ١/٢٥٩
(٥) البحر المحيط ١/٢٥٩
(٦) تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٤
(٧) البحر المحيط ١/٢٥٩

فقلنا اضربوه : الضّمير عائدٌ على القتيل[١] .

ببعضها : الباء فى ببعضها للآلة ، كما تقول : ضربت بالقدوم . والضّمير عائدٌ على البقرة أى ببعض البقرة[٢] و لم يعيّن ذلك البعض — ويصحّ أن يكون الذّنب وأن يكون غيره[٣] فلّما ضرب به حيى وأخبر بقاتله ثمّ عاد ميتاً كما كان[٤] .

كذلك يحيى الله الموتى : أى كما أحيا هذا بعد موته كذلك يحيى كلّ من مات . فالكاف فى موضع نصب لأنّه نعت لمصدر محذوف[٥] وإمّا أن يكون خطاباً للّذين حضروا حياة القتيل بمعنى : وقلنا لهم كذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة ويريكم آياته ..... وإمّا أن يكون خطاباً للمنكرين فى زمن رسول ﷺ[٦] .

ويريكم آياته : أى علاماته وقدرته[٧] وحججه[٨] والله تعالى قد ذكر فى هذه السّورة مِمَّا خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع : ثمّ بعثناكم من بعد موتكم . وهذه القصّة . وقصّة الّذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت . وقصّة الّذى مرّ على قريةٍ وهى خاوية على عروشها . وقصّة إبراهيم عليه السّلام والطّيور الأربعة[٩] .

تبدأ أولى الآيتين الكريمتين ، على غرار كلّ آية فى القسم تشير إلى إحدى النّعم الّتى امتن الله تعالى على بنى إسرائيل بالقول « وإذ » والمعنى : واذكروا إذ قتلتم نفساً . ولا زال الخطاب كعادته فى القسم يتّجه إلى بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ ، باعتبار نعمة إعطاء الدّليل الحسّىّ على إعادة الله تعالى الحياة للأموات بعد هذه الحياة الدّنيا ، ممتدّةً من الآباء المعاصرين للقتيل وإحيائه عن طريق ضربه ببعض البقرة إلى الأبناء المعاصرين للمصطفى ﷺ الّذين ينبغى عليهم أن يؤمنوا بالبعث والنّشور والحساب والجزاء ، ويكون ذلك عن طريق الإيمان بمحمّد ﷺ الّذى يوجد نعته فى التّوراة والّذى ينبغى

---

(١) انظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٥ والبحر المحيط ١/٢٦٠

(٢) البحر المحيط ١/٢٦٠

(٣) انظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٦ وتفسير القرطبىّ ص ٣٨٨ .

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٨٨

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٣

(٦) الكشّاف ١/٢٢٢

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٣

(٨) تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٦

(٩) تفسير ابن كثير ١/١١٢

عليهم الايمان به وقد أخذ الله تعالى ميثاق النبيّين على ذلك وإنّ أممهم تبعٌ لهم فى ذلك الأخذ للعهد المؤكّد .

والآية الكريمة تخاطب المعاصرين للمصطفى ﷺ بكونهم قتلوا القتيل منهم ثمّ اختلفوا وتنازعوا ودفع كلّ منهم التّهمة عن نفسه إلى الفريق الآخر المخاصم لـه ، ومعروفٌ أنّ القتل إنّما تمّ على عهد موسى عليه السّلام والاختلاف والتّنازع وإلصاق كلّ فريقٍ التّهمة بالآخر ودفعها عن نفسه ، وقع كلّ ذلك بين أتباع موسى عليه السّلام . وإنّما صحّ توجيه الخطاب للمعاصرين له عليه الصّلاة والسّلام كما صحّ فى كلّ المناسبات السّابقة لأنّ النّعمة شاملةٌ للأبناء كما قلنا ، فقد ثبتت بنعمة الله تعالى براءة البرىء وأدين المتّهم كما أنّ الجميع بحاجةٍ إلى الدّليل على البعث ، وإذا كان المعاصرون له عليه الصّلاة والسّلام لم يشهدوا حادثة القتل والبراءة فإنّ القصّة قد سجّلها الكتاب العزيز الّذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، وكتاب الله العزيز خالدٌ إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، ففى إمكان كلّ المؤمنين به أن يجدوا الدّليل على البعث فى تلاوة هذه القصّة فى سورة البقرة الكريمة ، وعلى غير المؤمنين أن يتحوّلوا مؤمنين مسلمين لله ربّ العالمين مصدّقين بالرّسول النبىّ الأمىّ ﷺ .

والآية الكريمة الأولى تختم بالقول : ﴿ والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون ﴾ وهو قولٌ يصحّ أن يتّجه إلى القاتلين باعتبارهم جهدوا فى كتمان الحقّ وإخفاء حقيقة القاتل . وإذا كان القاتل واحداً فالخطاب يتّجه إليه ضمن المخاطبين باعتبار هذا ما حرص عليه . وإذا كان القاتل أكثر من واحد فالخطاب يتّجه إليهما أو إليهم ، وهذا من باب الأَوْلى والأحرى . ونستطيع أن نفهم فى كلّ الأحوال أنّ ثمّة من كان حريصاً ، من غير القاتلين ، على كتمان حقيقة القاتل الّذى يعرفونه ، بل وعلى إلصاق التّهمة بالآخرين . وهو قولٌ يصحّ وراء ذلك أن يتّجه إلى المعاصرين إلى المصطفى ﷺ باعتبارهم حريصين على إخفاء نعوت المصطفى ﷺ الّتى يجدونها فى التّوراة وفى كتبهم المقدّسة . والله سبحانه مخرجٌ ما كنتم تكتمون . إنّ الله سبحانه وتعالى قادرٌ دائماً وأبداً على إخراج ما يكتمون ، وإظهار ما يسرّون ، وإعلان ما يخفون فى كلّ مرّةٍ من المرّات . ولا زال بنو إسرائيل فى مجموعهم

يخفون حقيقة نعوت المصطفى ﷺ ولا زال القرآن الكريم كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشرية مخرجاً ما كانوا يكتمون ولا زالوا يكتمون .

وتبيّن الآية الكريمة التّالية أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى لموسى عليه السّلام أن يأمر قومه بأن يضربوا القتيل ببعض البقرة الّتى أمروا بذبحها فضربوه بذنبها فيما يقال فأعاد الله تعالى الحياة إلى القتيل الّذى روى أنّهم لمّا ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تشخب دماً وقال : قتلنى فلانٌ وفلان لابنى عمّه ثمّ سقط ميتا[1] وحينما نذهب إلى كون الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة متأخّراً وجوداً وتلاوة ، نستطيع أن نذهب إلى كون الأمر بذبح البقرة وهى من جنس العجل الّذى عبده بنو إسرائيل لحكمةٍ أرادها الحكيم الخبير تجلّت فى ضرب القتيل ببعضها وعودة الحياة إليه بإرادة الله تعالى . وكأنّ الحكمة من الأمر بذبح البقرة تعميق الإحساس بعجزها وعجز العجل وتقوية اليقين بكون المستحقّ للعبادة هو الله تعالى وحده لا شريك له القادر على إعادة الحياة إلى الميت عن طريق ضرب ذلك الميت ببعض تلك البقرة الّتى ماتت بواسطة الذّبح . وامتثل بنو إسرائيل أمر الله تعالى ، ولم يجادلوا هذه المرّة فى عمليّة ضرب القتيل ببعض البقرة ، وكأنّهم استفادوا درساً من إلحافهم فى الأسئلة بشأن الأمر بذبح البقرة إلى أن تقبّل الله تعالى أوبتهم حينما علّقوا الهداية بالمشيئة الإلـٰهيّة . وربّما كان أمتثال بنى إسرائيل الأمر هذه المرّة على الفور دليلاً على كون الأمر بذبح البقرة سابقاً ، وها هم أولاء يستفيدون من الدّرس جيّداً فلا يطرحون سؤالا واحداً فضلاً عمّا وراء ذلك .

وتنص الآية الكريمة على الحكمة من أعادة الحياة إلى القتيل ، وربّما كانت هى ذات الحكمة البعيدة من الأمر بذبح البقرة أساساً . إنّه فى مثل تلك الحال الّتى أحيا الله سبحانه وتعالى القتيل عن طريق ضربه ببعض البقرة ، يحيى الله الموتى ، فعلى بن إسرائيل فى المقام الأوّل ، سواءٌ أكانوا فى عهد موسى عليه السّلام أم فى عهد محمّد ﷺ أن يؤمنوا بالبعث بعد الموت ، وعلى كلّ عباد الله تعالى وراء ذلك أن يؤمنوا بيوم القيامة . وكما أرى الله تعالى بنى إسرائيل آيةً من آياته الدّالّة على قدرته جلّ وعلا المطلقة على إعادة الحياة إلى الأموات ،

---

(١) الكشّاف ١/٢٢٢

وذلك عن طريق إعادة الحياة إلى القتيل ، يرى الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل وغير بنى إسرائيل آياته الدّالّة على قدرته المطلقة جلّ وعلا الفعّال لما يريد ، لعلّ بنى إسرائيل وغير بنى إسرائيل يستعملون ما أنعم الله تعالى به عليهم من عقول استعمالاً صحيحاً . والمعروف أنّ عناية الإسلام بالعقل باعتباره أحد مصادر المعرفة عنايةٌ كبيرة . وإنّ بنى إسرائيل وغير بنى إسرائيل حينما يستعملون نعمة العقل استعمالاً صحيحاً سينتهون حتماً إلى أن الدّين عند الله تعالى هو دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النبيّين وأشرف المرسلين .

الآيــة رقــم (٧٤)

قال تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة ، وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار ، وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء ، وإنّ منها لما يهبط من خشية الله . وما الله بغافلٍ عمّا تعملون﴾ .

معنى : ثمّ قست ، استبعاد القسوة من بعدما ذكر ممّا يوجب لين القلوب ورقّتها . ونحوه : ثمّ أنتم تمترون[1] .

والقسوة : الصّلابة والشّدة واليُبْس . وهى عبارةٌ عن خلوّها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى . قال أبو العالية وقتادة وغيرهما : المراد قلوب جميع بنى إسرائيل[2] .

وذلك : إشارةٌ إلى إحياء القتيل أو إلى جميع ماتقدم من الآيات المعدودة[3] .

والألف واللاّم فى الحجارة لتعريف الجنس . وجمعت الحجارة ولم تفرد فيقال كالحجر فيكون أخصر إذ دلالة المفرد على الجنس كدلالة الجمع ، لأنّه قوبل الجمع بالجمع ، لأن قلوبهم جمع فناسب مقابلته بالجمع ، ولأنّ قلوبهم متفاوتة فى القسوة ،

---

(١) الكشّاف ١/٢٢٣

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٣ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٦

(٣) الكشاف ١/٢٢٣ وانظر تفسير الطبرى ١/٢٨٦

كما أنّ الحجارة متفاوتةٌ فى الصلابة[١] .

أو للتّخيير . أى شبّهوها بالحجارة تصيبوا أو بأشدّ من الحجارة تصيبوا . وهذا كقول القائل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، وتعلّم الفقه أو الحديث[٢] والمعنى أنّ من عرف حالها شبّهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلاً . أو من عرفها شبّهها بالحجارة أو قال : هى أقسى من الحجارة[٣] .

قسوة : نصب على التّمييز[٤] .

وقرأ الجمهور لما بميم مخفّفة وهى موصولة[٥] وأدخلت هذه اللّامات اللّواتى فى ما توكيداً للخبر[٦] .

والتّفجّر التفعّل من فَجَرَ الماء وذلك إذا تنزّل خارجاً من منبعه . وكلّ سائلٍ شَخَصَ خارجاً من موضعه ومكانه فقد انفجر ، ماءً كان ذلك أو دماً أو صديداً أو غير ذلك[٧] والتّفجّر التّفتّح بالسّعة والكثرة[٨] والانفجار دونه[٩] .

الشّقّ : أن يجعل الشّىء شقّين ، وتشقّق منه[١٠] وقرأ الجمهور : يشّقّق بتشديد الشّين وأصله يتشقّق فأدغم التّاء فى الشّين[١١] .

والتّشقّق : التّصدّع بطول أو بعرض[١٢] وهذه عبارةٌ عن العيون الّتى لم تعظم حتّى تكون أنهاراً ، أو عن الحجارة الّتى تشّقق وإن لم يجر ماءٌ منفسح[١٣] .

يهبط : أى يتردّى من رأس الجبل إلى الأرض والسّفح[١٤] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٦٢

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٤ وانظر تفسير الطبرى ١/٢٨٧

(٣) الكشّاف ١/٢٢٣

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٤ والبحر المحيط ١/٢٦٢

(٥) البحر المحيط ١/٢٦٤

(٦) تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٨

(٧) تفسير الطّبرىّ ١/٢٨٨

(٨) الكشّاف ١/٢٢٣ والبحر المحيط ١/٢٦٥

(٩) البحر المحيط ١/٢٦٥

(١٠) البحر المحيط ١/٢٤٩

(١١) البحر المحيط ١/٢٦٥

(١٢) البحر المحيط ١/٢٦٥ وانظر الكشّاف ١/٢٢٣

(١٣) تفسير القرطبى ص ٣٩٤

(١٤) تفسير الطبرى ١/٢٨٨

والخشية : الخوف مع تعظّم المخشىّ[١] « واختلف المفسّرون فى تفسير هذا فذهب قومٌ إلى أنّ الخشية هنا حقيقة ..... فقال قومٌ معناه من خشية الحجارة لله تعالى ، فهى مصدر مضاف للمفعول وإنّ الله تعالى جعل لهذه الأحجار الّتى تهبط من خشية الله تعالى تمييزاً قام لها مقام الفعل المودع فيمن يعقل . واستدلّ على ذلك بأن الله تعالى وصف بعض الحجارة بالخشية وبعضها بالإرادة ووصف جميعها بالنّطق والتّحميد والتّقديس والتّأويب والتّصدّع . وكلّ هذه صفات لا تصدر إلاّ عن أهل التّمييز والمعرفة . قال تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ... ﴾ الآية . ﴿ وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده ﴾ . ﴿ يا جبال أوّبى معه والطّير ﴾ . وفى الحديث الصّحيح : إنّى لأعرف حجراً يسلّم علىّ قبل أن أبعث ، وأنّه بعد مبعثه ما مرّ بحجرٍ ولا مدرٍ إلاّ سلّم عليه . وفى الحجر الأسود أنّه يشهد لمن يستلمه . وفى حديث الحجر الّذى فر بثوب موسى عليه السّلام : وصار يعدو خلفه ويقول : ثوبى حجر . ثوبى حجر . وفى الحديث عن أُحُد : إنّ هذا جبلٌ يُحبُّنا ونحبّه . وفى حديث حراء لمّا اهتزّ : اسكن حراء . وفى حديث تسبيح صغار الحصى بكفّ رسول الله ﷺ . وقد دلّت هذه الجملة وأحاديث أخر على نطق الحيوانات والجمادات وانقياد الشّجر وغير ذلك . فلولا أنّه تعالى أودع فيها قوّةً مميّزةً وصفةً ناطقةً وحركةً اختياريّة لما صدر عنها شيءٌ من ذلك ولا حسن وصفها به . وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج وجماعة .... وذهب قومٌ إلى أنّ الخشية هنا مجازٌ من مجاز الاستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار فى قوله تعالى : ﴿ يريد أن ينقض ﴾ »[٢] .

وأصل الغفلة عن الشّىء تركه على وجه السّهو عنه والنّسيان له[٣] . يقال منه : غفَل يغفُل . ومكان غفل لم يعلم به[٤] وبغافل فى موضع نصب على أن تكون ما حجازيّة ، ويجوز أن تكون فى موضع رفع على أن تكون ما تميميّة فدخلت الباء فى خبر المبتدأ[٥] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٤٩
(٢) البحر المحيط ١/٢٦٦
(٣) تفسير الطبرى ١/٢٩٠
(٤) البحر المحيط ١/٢٤٩
(٥) البحر المحيط ١/٢٦٧

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى كونه جلّ وعلا يُرى بنى إسرائيل آياته جلّ وعلا لعلّهم يعقلون . ومن هذه الآيات البيّنات الدّالّة على قدرته جلّ وعلا المطلقة إحياء القتيل وقد ضُرِب ببعض البقرة . وحينما يكون العقل كاملاً والفكر ناضجاً فإنّ آثار ذلك تتجلّى فى القلوب اللّيّنة والأفئدة الرّقيقة ، فإنّ الإيمان حينما يكون كاملاً والعلم حينما يكون وافراً فإنّهما بفضل الله تعالى يؤدّيان إلى خشية الله تعالى ، وقد قال عز من قائل[1] : ﴿ إنّما يخشى اللهَ من عباده العلماء ﴾ وقد كان المنتظر من بنى إسرائيل أن يكونوا على درجةٍ كبيرةٍ من شفافية الرّوح ورقّة المشاعر ودقة الأحاسيس وسموّ النّفوس ولين القلوب . والعجيب فى الأمر أنّ القوم كانوا بعكس كلّ ذلك . إنّ آيات الله تعالى الكثيرة الّتى خصّهم بها ، ومنها المعنوىّ كآيات التّوراة ومنها المادّىّ كالآيات الكثيرة المحسوسة الّتى جرت على يد موسى عليه السّلام مثلاً ، بدلاً من أن تجعل قلوبهم أكثر ليناً ورأفةً ورحمة ، كانت بعكس ذلك ، بل إنّها تمادت فى السّير فى هذا الطّريق المعكوس حتّى غدت قلوب القوم أقسى قلوب ، وأكبادهم أغلظ أكباد . وقد نصّت الآية الكريمة الّتى نحن بصددها على كلّ ذلك .

وها هى ذى الآية الكريمة تبدأ بالقول : ﴿ ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ ومع أنّ ثُمَّ تفيد الترتيب مع التّراخى فى الأصل ، ممّا يصحّ أن يفهم معه أنّ القوم انتفعوا بهذه الآيات البيّنات شيئاً من الوقت ، فإنّا يصحّ أن نفهم وراء ذلك ما فهمه الزّمخشرىّ إذ قال[2] : « معنى : ثمّ قست ، استبعاد القسوة من بعد ما ذكر ممّا يوجب لين القلوب ورقّتها ، ونحوه : ﴿ ثمّ أنتم تمترون ﴾ » .

ولا زال الخطاب متّجها إلى بنى إسرائيل المعاصرين للمصطفى ﷺ ، وكأنّ المقصود اشتراك القوم مع آبائهم فى قسوة القلوب . ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ والمراد بعد كلّ الآيات ، وتأتى آية إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة آيةً بارزةً من بين الآيات المحسوسة ، خاصّةً وأنّها من أواخر الآيات حدوثاً .

---

(١) سورة فاطر ٢٨

(٢) الكشّاف ١/٢٢٣

وتشبّه الآية الكريمة قلوب بنى إسرائيل الّتى اتّجهت بشأن آيات الله تعالى البيّنات اتّجاهاً معكوساً بأقسى الأشياء المتعارف عليها بين البشر وأشدّها ظهوراً وأقربها تناولاً ، ألا وهى الحجارة . ومنذ الوهلة الأولى تنتقى الآية الكريمة من بين الحجارة المختلفة الصّفات أشدّها قسوة وذلك حينما يتّجه الحديث من تشبيه قلوب القوم بالحجارة إلى ما هو أشدّ من الحجارة قسوة ﴿ فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ وإنّ فى استعمال الآية الكريمة لفظ « قسوة » نفياً لكلّ الصّفات الأخرى الّتى يصحّ أن تتّصف بها الحجارة من لين ورخاوة وطواعية . إنّ قلوب القوم أقسى قلوب ، وتماثل أقلّ القلوب قساوة أشدّ الحجارة قساوة ، فكيف بالقلوب الأخرى الأشدّ سوءً والّتى تفوقها قسوة . إنّ السياق يترك لنا حرّية البحث عمّا وراء أشدّ الحجارة قسارة ، كالحديد مثلاً ، بل كصلب الحديد ، كى نشبّه به تلك القلوب الّتى تفوق الحجارة قسوة والعياذ بالله .

وبقصد تنبيه القوم إلى الطّريق الصّحيح الّذى كان ينبغى على قلوبهم أن تسير فيه ، متدفّقةً بالإيمان والتّقوى وخشية الله تعالى ، وبالمحبة والرّأفة والرّحمة ، تتحدّث الآية الكريمة عن بعض صفات الجبال المعروفة بالقسوة أساساً ، وذلك من ثلاث زوايا تتحدّث كلٌّ عن صفة كان الأولى أنْ تتحقّق فى قلوب القوم المهيّئين لذلك المكلّفين المطالبين به ، والعجيب فى الأمر أنّ الشّىء الحسن المطلوب يأتى من غير المطلوب منه ذلك وغير المكلّف وغير العاقل ، بينما الشّىء غير المطلوب وغير المتوقّع ولا المنتظر وهو القسوة يأتى نابعاً من قلب إنسان !

أمّا الزّاوية أو الصّفة الأولى فإنّها يشملها قوله تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجرّ منه الأنهار ﴾ والّذى يلفت النّظر صفة التّفجّر ولفظ الأنهار . ويكون التّفجّر فى هيئة التّدفّق الكثيف العنيف للماء . ولا يكون التّفجّر فى هذه الصّورة إلاّ وليد كثرة الماء وجيشانه ، ووليد طواعية الصّخر له . إنّ الصّخر رغم قساوته المفطور عليها فإنّه يتجاوب مع الماء الغزير الهائج ويفسح له فى صدره متّسعاً يتدفّق منه كى يسيل أنهاراً متماوجةً مزبدة . ويلاحظ التّجانس بين تفجرّ الماء وبين تدفّقه أنهاراً جارية ، كما يلاحظ التّجانس التّام والتّفاعل الكامل بين الماء الغزير وبين الصّخر الّذى اتّسعت شقوقه تلبيةً

لحاجة الماء ، وتجاوباً مع غزارته . ويبدو التّناغم التّام بين التّفجّر وبين الأنهار ، حينما نتبيّن الفرق بين الانفجار والانبجاس . وإنّما يكون الانفجار ، بمعنى اتّساع الشّقوق ، إثر الانبجاس ، بمعنى ضيق الشّقوق ابتداءً . إنّ الآية الكريمة تتجاوز مرحلة الانبجاس الأولى إلى مرحلة الانفجار الأخيرة إشارةً إلى التّناغم بين الماء وبين الحجر . وحينما يتبيّن أنّ الحجارة من أشدّ الأشياء قسوة ، وأن الماء من أشدّ الأشياء لينا ، وبإرادة الله تعالى يخرج أشدّ الأشياء ليناً من أشدّ الأشياء قسوة لا يكاد ينقضي عجبنا . فكيف إذا كان كلٌّ من اللّيّن والقاسى جمادا ؟ وكيف إذا كان عكس ذلك تماماً يحدث من بنى إسرائيل على جهة الخصوص ؟ وكما لاحظنا فإنّ الآية الكريمة تبدأ بهذه الصّفة التى تشير إلى منتهى التّفاعل بين الماء والحجارة ، وكأنّ التّنبيه إلى كون هذه الصّفة ينبغى أن تتحقّق فى البشر أصلاً والعجيب أنّها لا تتحقّق فى الإنسان بينما تتحقّق فى غير الإنسان ، وهى لا تتحقّق فى الكائن الّذى يلى الإنسان درجة ، بل لا تتحقّق فى الّذى يلى الّذى يليه درجة ، وأعنى على التّوالى الحيوان والنّبات ، ولكنّها تتحقق فى أقل الكائنات درجة ، وعلى جهة التّحديد فى الحجارة ، وليس فى أىّ حجارة ، بل فى الحجارة القاسية ، بل فى أقسى الحجارة . فسبحان الله تعالى الفعّال لما يريد القادر على كلّ شىء الّذى لا يعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

وأمّا الزّاوية أو الصّفة الثانية فإنّها يشملها قوله تعالى : ﴿ وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء ﴾ ونحن إذا كنّا لاحظنا من ذى قبل أنّ الأنهار المتدفّقة هى الّتى تفجرّت وأنّ تجاوب الصّخر القاسى وتفاعله مع الماء كان متناسباً مع كمّيّة الماء الهائلة وحركته وتدفّقه ، فإنّا نلاحظ هنا كذلك أنّ الماء هو الّذى يخرج وأنّ الحجارة تتجاوب مع كميّة الماء وتلبّى حاجته . إنّ كميّة الماء هنا ليست هائلة كما كانت من ذى قبل ولكنّها كبيرة ، فهى إذن ليست بحاجة إلى الفوهات الكبيرة ولا إلى الشّقوق العريضة ، إنّها بحاجةٍ فقط إلى شقوقٍ محدودة الاتّساع تتّجه طولاً أو تتّجه عرضاً ، أو تتّجه عرضاً وطولاً ، وهى فى كلّ الأحوال تلبّى حاجة الكميّة من الماء الكبيرة فتنبجس الحجارة عيوناً وربّما تنفجر عيوناً متدفّقة وجداول مترقرقة ، وفى كلّ الأحوال لا ترقى كَمّيّة الماء كى تكوّن نهراً

واحداً ، ومن هنا كانت الشّقوق كافية ، وتجاوب الحجارة مع هذه الكمية من الماء المحدودة وافيا .

وأمّا الزاوية أو الصّفة الثّالثة فإنّها يشملها قوله تعالى : ﴿ وإنّ منها لما يهبط من خشية الله ﴾ وكأنّ الماء هذه المرّة مضمر أو غير موجود ونستطيع أن ندرك طبيعة كلٍّ من الحجارة ومن الماء غير الموجود أو الموجود من جملة « يهبط » الّتى تعنى الانحدار والنّزول والتّطامن . إنّ الحجارة القاسية تتفجّر بإرادة الله تعالى الأنهارُ منها ، ويخرج الماء من شقوقها . وكلّ ذلك دليلٌ على طاعتها المطلقة لإرادة خالقها جلّ وعلا الفعّال لما يريد الواحد القهّار . وتتجلّى طاعة الحجارة القاسية لإرادة الله تعالى وامتثالها لأوامره جلّ وعلا وراء ذلك غير مقترنٍ منهما هذه المرّة بالماء الظّاهر على أقلّ تقدير ، فقد يصحّ أن يقترن ذلك بالماء المضمر . أمّا المظهر الّذى يتجلّى فيه الامتثال والطّاعة فإنّه الهبوط من خشية الله تعالى . ونستطيع أن نفهم الهبوط بأنّه انحدار الحجارة من أعلى إلى أسفل وسقوط الصّخور من على رءوس الجبال إلى سفوحها . وقد يحدث ذلك منها ابتداءً ودون محرّكٍ ظاهرٍ كالماء مثلاً ، وربّما حدث ذلك بدافع الماء . وفى الحالة الأولى الماء غير موجود ، وفى الحالة الثّانية الماء موجود وظاهر ، وثمّة حالةٌ ثالثةٌ يكون الماء معها موجوداً ومضمراً . وتفسير ذلك حينما يحدث فى بعض المناطق هبوط واضح لحجارة وصخور ، ونزول لمستواها بفعل عوامل داخليّة سائلة ، فى مقدّمتها الماء .

وإذا كان الهبوط فى ظاهره مرئيًّا بالعين ، فإنّه فى باطنه مظهرٌ من مظاهر طاعة هذه الحجارة القاسية لله تعالى وهى غير العاقلة وغير المكلّفة . والعجيب أنّ الحجارة القاسية بطبعها تنفعل بإرادة الله تعالى وتتجاوب مع الماء الّذى يتدفّق أنهاراً أو يسيل عيوناً ، أمّا قلوب بنى إسرائيل فإنّها قاسية ، وهى تشبه الحجارة ولكنّها القاسية ، فقد تحدّدت قسوة الحجارة بوصف قلوب القوم بالقسوة ، وهى وراء ذلك أشدّ من الحجارة قسوة . وتأخذ طاعة الحجارة لله تعالى تتّجه صعداً ابتداءً بهبوطها الظّاهر للعيان وانتهاءً بخشيتها الحقيقية لله تعالى الواحد القهّار ، فهى كلُّها بمثابة القلوب الّتى لانت لذكر الله تعالى والّتى خضعت لأوامره وامتلأت بحبّه جلّ وعلا وخوفه ، والحبّ المقرون بالخوف هما عماد

خشية الله تعالى . وكأنّ الحجارة القاسية الّتى بدت للعيون هابطةً فى صور الهبوط المتعددة ، إنّما تعبّر حقيقةً ومنذ الوهلة الأولى عن خشيتها لله تعالى ، وإن بدى لعيوننا أوّل الأمر أنّ الهبوط آليّ والنّزول اضطراريّ . وكأنّ خشية الحجارة لله تعالى الّتى تجلّت فى هبوطها ثمرة تسبيحها لله تعالى وسجودها له جلّ وعلا وقد قال عزّ من قائل[١] : ﴿ تسبحّ له السّماوات السّبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيءٍ إلاّ يسبحّ بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً ﴾ وقال تعالى[٢] : ﴿ ألم تر أنّ الله يسبّح له من فى السّماوات والأرض والطّير صافاتٍ كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليمٌ بما يفعلون ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ ألم تر أنّ الله يسجد له من فى السّماوات ومن فى الأرض والشّمس والقمر والنّجوم والجبال والشّجر والدّواب وكثيرٌ من النّاس وكثيرٌ حقّ عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إنّ الله يفعل ما يشاء ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيّأ ظلاله عن اليمين والشّمائل سجّداً لله وهم داخرون . ولله يسجد ما فى السّماوات وما فى الأرض من دابّةٍ والملائكة وهم لا يستكبرون . يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وقال تعالى[٥] : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشىء السّحاب الثّقال . ويسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصوّاعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحال . له دعوة الحقّ ، والّذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلاّ فى ضلال . ولله يسجد من فى السّماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال ﴾ .

إنّ من أهمّ مظاهر الطّاعة التّسبيح والسّجود ، وإنّ من أهمّ متعلّقاتها الخشية . وها هى ذى الحجارة تخشى الله تعالى ، ومعروف أنّ من متعلّقات الخشية الخضوع والخشوع . إنّ كلّ هذه الصّفات تتعلّق بالجمادات الّتى لا تعقل ، وقد عبّر عنها بخشية الحجارة لله تعالى ، وكأنّها قلوب تنبض بحبّ الله تعالى والخوف منه ، والعجيب أنّ

---

(١) سورة الإسراء ٤٤
(٢) سورة النّور ٤١
(٣) سورة الحج ١٨
(٤) سورة النحل ٤٨ — ٥٠
(٥) سورة الرّعد ١٢ — ١٥

قلوب كفّار بنى إسرائيل خلوٌ من كلّ ذلك صفرٌ من أدنى خير والعياذ بالله . وانظر إلى ما يقول السيوطىّ فى الإتقان[١] فى معنى الخشية : « ... الخوف والخشية لا يكاد اللّغوىّ يفرّق بينهما ، ولا شكّ أن الخشية أعلى منه ، وهى أشدّ الخوف .... وفرّق بينهما أيضاً بأن الخشية تكون من عظم المخشَى ، وإن كان الخاشى قويّاً ، والخوف من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيرا ، ويدلّ لذلك أنّ الخاء والشّين والياء تقاليبها تدلّ على العظمة ، نحو : شيخ للسيّد الكبير ، وخيش لما غلظ من اللّباس ، ولذا وردت الخشية غالبا فى حق الله تعالى » .

وحينما لا تمتلئ قلوب بنى إسرائيل بخشية الله تعالى فإنها تمتلئ بالأهواء ويكون القوم أداةً طيّعة للشّيطان الرّجيم ويأتون من الأقوال والأفعال ما لا يليق ببنى آدم . وهنا نتبيّن أنّ الآية الكريمة فى معرض التّهديد تخاطبهم ، فى هيئة المعاصرين للمصطفى ﷺ بالقول : ﴿ وما الله بغافل عمّا تعملون ﴾ وإن من أهمّ حِكَم خطاب هؤلاء المعاصرين للمصطفى ﷺ اشتراكهم مع آبائهم فى قسوة القلوب وغلظ الأفئدة وسوء الأقوال وقبح الأفعال والعياذ بالله .

الآيــة رقــم (٧٥)

قال تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم لا يعلمون ﴾ .

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم : هذا استفهامٌ فيه معنى الإنكار ، كأنّه أيأسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود[٢] .

والفاء بعد الهمزة أصلها التّقديم عليه والتّقدير : فأتطمعون . فالفاء للعطف . لٰكنّه اعتنى بهمزة الاستفهام فقدّمت عليها[٣] .

---

(١) ٣٦٣/٢

(٢) تفسير القرطبى ص ٣٩٦

(٣) البحر المحيط ٢٧١/١

الطّمع : تعلّق النّفس بإرادة مطلوب تعلّقاً قويّاً ، وهو أشدّ من الرّجاء لأنّه لا يحدث إلا عن قوّة رغبة وشدّة إرادة[١] والطّمع ضدّ اليأس[٢] .

ومع أنّ الخطاب يصحّ أن يتّجه إلى المؤمنين عموماً ، فقد كانت رغبة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ شديدةً فى إيمان اليهود المعاصرين للمصطفى ﷺ[٣] فإنّه وراء ذلك يصحّ أن يتّجه على جهة الخصوص إلى الأنصار الّذين كانوا قبل الإسلام حلفاء لليهود وبينهم جوار ورضاعة [٤] وعليه فالضمير فى ﴿ أن يؤمنوا ﴾ لليهود ، والمعنى استبعاد إيمان اليهود إذ تقدّم لأسلافهم أفاعيل وجرى أبناؤهم عليها ، فبعيدٌ صدور الإيمان من هؤلاء[٥] .

لكم : اللاّم لام السّبب ، أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم لهم[٦] .

والواو فى قوله : وقد كان فريق ، وفى قوله : وهم يعلمون ، واو الحال[٧] .

والفريق اسم جمعٍ لا واحد له من لفظه ، وجمعه فى أدنى العدد أفرقة ، وفى الكثير أفرقاء[٨] وهو فعيل من التّفرّق ، سُمّى به الجِماع كما سمّيت الجماعة بالحزب من التّحزّب وما أشبه ذلك[٩] .

وكلام الله الّذى حرّفوه قيل هو التّوراة حرّفوها بتبديل ألفاظٍ من تلقائهم ، وهو قول الجمهور[١٠] .

ثمّ يحرّفونه . أحد الأصول الثّلاثة للحاء والرّاء والفاء الانحراف عن الشّىء . يقال : انحرف عنه ينحرف انحرافا . وحرّفته أنا عنه ، أى عدلت به عنه .. وذلك كتحريف الكلام ، وهو عدله عن جهته . قال الله تعالى : ﴿ يحرّفون الكلم عن مواضعه ﴾[١١]

---

(١) البحر المحيط ١/٢٦٩ .
(٢) البحر المحيط ١/٢٦٩
(٣) انظر تفسير القرطبى ص ٣٩٦ والكشّاف ١/٢٢٣ والبحر المحيط ١/٢٧١
(٤) انظر البحر المحيط ١/٢٧١
(٥) البحر المحيط ١/٢٧١
(٦) البحر المحيط ١/٤٧٢
(٧) البحر المحيط ١/٢٧٢
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٧
(٩) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٠
(١٠) البحر المحيط ١/٢٧٢
(١١) مقاييس اللّغة لابن فارس « حرف » ٢/٤٢ وانظر تفسير الطبرى ١/٢٩٢ .

قال مجاهد والسّدّىّ: هم علماء اليهود الّذين يحرّفون التّوراة فيجعلون الحرام حلالاً والحلال حراماً اتّباعا لأهوائهم[١] وكما حرّفوا صفة الرسول صلى الله ﷺ وآية الرّجم[٢] وإنّما حرّفوا صفته ﷺ بأن وصفوه بغير الوصف الّذى هو عليه حتّى لا تقوم عليهم به الحجّة[٣] قال ابن زيد فى قوله : يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه ، قال التّوراة الّتى أنزلها عليهم يحرّفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً والحقّ فيها باطلاً والباطل فيها حقًا . إذا جاءهم المحقّ برشوةٍ أخرجوا له كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محقّ . وإن جاء أحدٌ يسألهم شيئاً ليس فيه حقٌّ ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحقّ فقال لهم : أتأمرون النّاس بالبّر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون[٤] .

من بعدما عقلوه : ما مصدريّة أى من بعد عقلهم إيّاه[٥] .

عقلوه : فهموه وضبطوه بعقولهم ولم تبق لهم شبهة فى صحّته[٦] وعرفوه وعلموه[٧] .

وهم يعلمون : ومتعلّق العلم محذوف أى أنّهم قد حرّفوه ، أو ما فى تحريفه من العقاب ، أو أنّه الحقّ ، أو أنّهم مبطلون كاذبون[٨] .

بعد أن سجّلت الآيات الكريمة السّابقة سلسلةً من كفران بنى إسرائيل النّعم وبيّنت مجموعةً كبيرةً من مظاهر تعنّتهم وعصيانهم أوامر الله تعالى ، وقرّرت تماديهم فى الكفران والعصيان حتّى غدت قلوبهم قاسيةً كالحجارة أو أشدّ قسوة ، تحوّل السّياق إلى مخاطبة المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ . وها هى ذى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تخاطب هؤلاء المؤمنين ، فى صيغة الاستفهام الإنكارىّ ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ﴾ إنّه من

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٩٨ والبحر المحيط ١/٢٧١

(٢) الكشّاف ١/٢٢٣

(٣) البحر المحيط ١/٢٧٢

(٤) تفسير الطبرى ١/٢٩١

(٥) البحر المحيط ١/٢٧٢

(٦) الكشّاف ١/٢٢٣

(٧) تفسير القرطبى ص ٣٩٨

(٨) البحر المحيط ١/٢٧٢

المعروف حرص المصطفى ﷺ على دخول كلّ النّاس فى دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده ، حتّى إنّ ربّ العزّة ليخاطبه ﷺ فى سورتين مكيّتين فى طريقةٍ يفهم معها النّهى عن قتله ﷺ نفسه وإهلاكه لها حَزَناً بسبب انصراف قومه عن الصّراط المستقيم وإعراضهم عن الدّين الحقّ . قال تعالى(١) ﴿ فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ وقال تعالى(٢) : ﴿ لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ وإنّه من المعروف حرص المسلمين على أن يدخل فى هذا الدين كلّ النّاس . وفى المدينة المنوّرة كان هنالك المؤمنون والمنافقون وبنو إسرائيل . ومن الطّبيعىّ أن يحرص المؤمنون على أن يدخل فى الإسلام المشركون وبنو إسرائيل ، ومن الطّبيعىّ أن يحرص الأنصار بخاصّة على أن يدخل بنو إسرائيل فى الإسلام فقد كان بعض اليهود فى الجاهليّة حلفاء بعض بطون الأوس والخزرج . وبسبب التّحالف القديم بين بعض البطون من الحيّين وبسبب الجوار ، كانوا حريصين حقًّا على إسلام بنى إسرائيل ، وقد اشتدّ هذا الحرص لدى المؤمنين حتّى تحوّل رجاءً شديداً بل حتّى غدا طمعاً ، ظنًّا من المؤمنين أنّ بنى إسرائيل يمكن أن يعتنقوا دين الإسلام . وإنّ القرآن الكريم قرر سلسلةً من تعنّت بنى إسرائيل لينكر على المؤمنين فى هيئة الاستفهام « أفتطمعون » ينكر على المؤمنين طمعهم أن يتحوّل كفّار بنى إسرائيل مسلمين مؤمنين مصّدقين بنبوّة خاتم الأنبياء والمرسلين . ومع أن الآية الكريمة تبنى إنكارها على ما سجّلته الآيات الكريمة السّابقة من عصيان بنى إسرائيل ، فإنّها على طريقة القرآن الكريم فى عرضه الجميل لمعانيه الجليلة تضيف دليلاً جديداً قديماً لتأييد الإنكار وتقرير موجبه . وهذا الدّليل فى قوله تعالىّ ﴿ وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ﴾ أمّا كون الدّليل جديداً فلأنّه لم يصرّح به من قبل ضمن ضلالات بنى إسرائيل وتعنّتهم . وأمّا كونه قديماً فلأنّه أحد الأدلّة الّتى تهدف إلى غرضٍ واحد هو تبيين مدى تعنّت بنى إسرائيل .

ولهذا الدّليل الجديد على تعنّت القوم كبير دورٍ فى تبيين ذنبٍ كبيرٍ ارتكبه القوم ، ويدلّ ارتكاب القوم له ــ وذلك بتحريفهم كلام الله تعالى ــ على حقيقة الموقف

---

(١) سورة الكهف ٦ (٢) سورة الشعراء ٣

الّذى سيقفه القوم من معجزة المصطفى ﷺ الكبرى الخالدة ألا وهى القرآن الكريم . إنّ القوم إذا كانوا لم يتورّعوا عن ارتكاب هذا الذّنب الكبير فى حقّ التّوراة ، الكتاب السّماوىّ الّذى أنزله الله تعالى على موسى عليه السّلام فهل يتورّعون عن ارتكاب كلّ منكر واعتساف كلّ شطط فى حقّ القرآن الكريم الّذى أنزله على محمّد صلّى الله عليه وسلّم . إنّهم لم يتورّعوا عن تحريف الكتاب السّماوىّ الّذى أنزله الله تعالى على أحد كبار رسل الله تعالى إلى بنى إسرائيل فكيف يتورّعون عن عمل ما يستطيعون عمله فى حقّ الكتاب السّماوىّ الّذى أنزله الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ ، وهو من ذرّية إسماعيل عليه السّلام . إنّهم لم يتورّعوا عن ارتكاب تلك الجريمة فى حقّ أحد أنبيائهم فكيف يتورّعون عن ارتكاب ما يستطيعون ارتكابه فى حقّ نبيّ ليس من أنبيائهم وهم الّذين يعتقدون أنّهم شعب الله المختار ، وأنّ الرّسالة ينبغى أن تكون فى ذرّيّة إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام كما كانت دائما فى هذا الفرع ، لا أن تتحوّل فى شخص محمّد ﷺ إلى ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام .

إنّ الجراءة على حرمات الله تعالى قد انتهت بالقوم إلى تحريف كلام الله تعالى من بعد سماعه وفهمه ووعيه ، وإلى تحويل معانى آيات التّوراة عن وجهها ، وإلى العبث بآيات التّوراة حذفاً وإضافةً وتغييراً وتبديلاً وإخفاءً وإظهاراً وتأويلاً . وإنّ ممّا غيّره القوم وعبثوا به نعت المصطفى ﷺ كى يقولوا إنّ الصفات الموجودة لدينا تختلف عن صفات محمّد بن عبد الله ﷺ وبناءً على ذلك ليس هو النّبىّ الّذى نجده فى التّوراة .

وانظر إلى جملة ﴿ يسمعون ﴾ فى الآية الكريمة الّتى يراد بها هنا أنّ القوم تجاوزوا مرحلة السّماع المجرّد الّتى يشترك فيها العاقل وغير العاقل ، إلى مرحلة الفهم والوعى ، وهى المرحلة الّتى يتمتّع بها العاقل من النّاس الفاهم لما يسمع الحافظ له . والّذى عمّق هذه الصّفة فى القوم وأكّدها القول : ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ إنّ طبيعة العقل الحفظ والضّبط ، وإنّ القوم قد سمعوا كلام الله تعالى ووعوه وأدركوا ما يستحقّه المحرّف لكتاب الله تعالى من أليم العذاب ، إنّهم على علمٍ بكلّ ذلك ، ومع ذلك يقدمون بدون أىّ تردّدٍ على تحريف كلام الله تعالى .

أىّ خيرٍ يُرْجى من القوم ، وهل يُطْمَعُ فى إيمان القوم ؟ إنّ الأَولى بالمسلمين أن ييأسوا ففى اليأس راحة . والمعروف أنّ عدد الّذين أسلموا من بنى إسرائيل وظفروا بصحبة المصطفى ﷺ تسعةٌ وثلاثون شخصاً[١] والمعروف أن الآية الكريمة تبيّن أنّ الّذين أقدموا على تحريف كلام الله تعالى من بعدما سمعوه وعقلوه إنّما هم فريقٌ وجماعة من بنى إسرائيل . ويصحّ أن يكون هذا الفريق فى مجموعه من الأحبار .

إنّ واجب المسلمين أن ييأسوا من تحوّل كفّار بنى إسرائيل إلى دين الإسلام فإنّ فى اليأس الكثير من الرّاحة .

ومن السّور الكريمة الّتى أشارت إلى تحريف بنى إسرائيل الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه سورة المائدة . قال تعالى[٢] : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرّفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً ممّا ذكّروا به ، ولا تزال تطّلع على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إنّ الله يحبّ المحسنين ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ يا أيّها الرّسول لا يحزنك الّذين يسارعون فى الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك يحرّفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا . ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم ، لهم فى الدّنيا خزىٌ ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيم ﴾ .

الآيــة رقــم (٧٦)

قال تعالى : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم أفلا تعقلون ﴾ .

---

(١) انظر مثلاً السّيرة النّبويّة لأبى الحسن النّدوىّ ص ١٦١ هامش رقم (١) .

(٢) سورة المائدة ١٣

(٣) سورة المائدة ٤١ وانظر الآية الكريمة السّادسة والأربعين من سورة النّساء .

نحن نتبيّن ابتداءً نوعاً من تشابه بين حديث الآية الكريمة عن منافقى اليهود وبين حديث هذه الآيات الكريمات من سورة آل عمران[١] عن هؤلاء المنافقين . قال تعالى : ﴿ وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب آمنوا بالّذى أنزل على الّذين آمنوا وجه النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحدٌ مثلما أوتيتم أو يحاجّوكم عن ربّكم ، قل إنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله واسعٌ عليم . يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

كما نتبيّن وراء ذلك شبهاً بين حديث هذه الآية الكريمة الّتى تتحدّث عن منافقى اليهود وبين الآية الكريمة السّابقة من سورة البقرة الّتى تتحدّث عن منافقى العرب وذلك فى قوله تعالى[٢] : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدّهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

وإذا خلا بعضهم إلى بعض : أى إذا خلا بعض هؤلاء اليهود الّذين وصف الله صفتهم إلى بعضٍ منهم فصاروا فى خلاءٍ من النّاس غيرهم ، وذلك هو الموضع الّذى ليس فيه غيرهم[٣] ويقول ابن فارس[٤] : « الخاء واللّام والحرف المعتّل أصلٌ واحدٌ يدلّ على تعرّى الشّىء من الشّىء . يقال هو خِلْوٌ من كذا ، إذا كان عِرْواً منه . وخلت الدّار وغيرُها تخلو . والخِلِىّ الخالى من الغم ..... والمكان الخلاء : الّذى لا شىء به . ويقال : ما فى الدّار أحدٌ خلا زيدٍ وزيداً ، أى دع ذكر زيدٍ ، اخل من ذكر زيد . ويقال : افعل ذاك وخلاك ذمٌّ ، أى عداك وخلوت منه وخلا منك » . ويقول أبو حيّان[٥] : « والأجود أن يضمّن خلا معنى فعلٍ يُعَدَّى بإلى أى انضوى إلى بعض أو استكان أو ما أشبهه »

والتّحديث : الإخبار عن حادث . ويقال منه يحدّث . وأصله من الحدوث . وأصل فعله أن يتعدّى إلى واحدٍ بنفسه ، وإلى آخر بعن ، وإلى ثالثٍ بالباء فيقال : حدّثت زيداً عن بكرٍ بكذا[٦] .

---

(١) الآيات ٧٢ ــ ٧٤ .
(٢) سورة البقرة ١٤ ، ١٥
(٣) تفسير الطبرى ١/٢٩٣
(٤) معجم مقاييس اللّغة « خلو » ١/٢٠٤
(٥) البحر المحيط ١/٢٧٣
(٦) البحر المحيط ١/٢٦٩

وما موصولة ، والضّمير العائد عليها محذوف تقديره بما فتحه الله عليكم[١] .

بما فتح الله عليكم : الفتح بمعنى الإعلام والإذكار ، أى أتحدّثونهم بما أعلمكم الله به من صفة نبيّهم . ورواه الضّحاك عن ابن عبّاس[٢] . وقيل : المعنى بما بيّن الله لكم من أمر محمّد ﷺ وصفته وشريعته وما دعاكم إليه من الإيمان به وأخذ العهود على أنبيائكم بتصديقه ونصرته[٣] « عن ابن عبّاس : وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا أى بصاحبكم رسول الله ولٰكنّه إليكم خاصّة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا لا تحدّثوا العرب فإنّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله : وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربّكم ، أى تقرّون بأنّه نبى وقد علمتم أنّه قد أخذ له الميثاق عليكم باتّباعه وهو يخبرهم أنّه النّبىّ ﷺ الّذى كنّا ننتظر ونجده فى كتابنا ، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به »[٤] .

« عن قتادة : قالوا أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم أى بما منّ الله عليكم فى كتابكم من نعت محمّد ﷺ فإنّكم إذا فعلتم ذلك احتجّوا به عليكم أفلا تعقلون »[٥] .

ليحاجوّكم : نصب بلام كى . وإن شئت بإضمار أن . وعلامة النّصب حذف النّون[٦] المعنى : ليحتجوّا عليكم بقولكم ، يقولون كفرتم به بعد أن وقفتم على صدقه . وقيل : إنّ الرّجل من اليهود كان يلقى صديقه من المسلمين فيقول له : تمسّك بدين محمّد فإنّه نبىٌّ حقّا[٧] والحجّة : الكلام المستقيم ، مأخوذ من محجّة الطّريق[٨] وحاججت فلاناً فحججته أى غلبته بالحجّة ، ومنه الحديث : فحجّ آدم موسى[٩] .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٧٣ (٢) البحر المحيط ١/٢٧٣

(٣) البحر المحيط ١/٣٧٣ وانظر تفسير ابن كثير ١/١١٥

(٤) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٣

(٥) تفسير الطبرى ١/٢٩٣ وهذا هو الرّأى الّذى رجّحه الطّبرىّ انظر ١/٢٩٥

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٣٩٩ (٧) تفسير القرطبىّ ٣٩٩

(٨) البحر المحيط ١/٢٦٩ وانظر معجم مقاييس اللّغة « حجّ » ٢/٣٠ وتفسير القرطبىّ ص ٤٠٠

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٠

عند ربّكم : قيل فى الآخرة كما قال : ﴿ ثمّ إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون ﴾[١] .

إنّ الفريق من بنى إسرائيل الّذى كان يسمع آيات التّوراة ويعقلها ، والّذى اعتاد تحريفها ، والّذى يبعد احتمال اعتناقه دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده للدّرجة الّتى أُنْكِر فيها على المؤمنين فى صيغة الاستفهام أن يطمعوا فى إيمان هذا الفريق ، كان أفراده إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا . وهذا القول هو ذات القول الّذى جرى على ألسنة المنافقين من قبل فى مخاطبتهم للمؤمنين . ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ منافقى اليهود يدّعون الإيمان بالقرآن الكريم فى المقام الأوّل . أو ليسوا هم الّذين حرّفوا آيات التّوراة من بعدما عقلوها وهم يعلمون أنّهم يأتون منكراً وزورا ؟ بلى إذن فما الّذى يمنع القوم وقد حرّفوا كتابهم السّماوىّ أن يدّعوا الإيمان بالقرآن الكريم بينما هم فى الحقيقة ليسوا بمؤمنين . أو ليسوا هم الّذين جرى القول على لسانهم[٢] : ﴿ آمنوا بالّذى أنزل على الّذين آمنوا وجه النّهار واكفروا آخره لعلّهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلاّ لمن تبع دينكم ﴾ وحينما يزعم هذا الفريق من منافقى اليهود أنّه آمن بالقرآن الكريم ، فذلك معناه ضمناً أنّهم آمنوا بالرّسول الكريم وصدّقوه فى كلّ ما جاء به من ربّه جلّ وعلا ، وعليه فهم يزعمون أنّهم مؤمنون بينما هم فى حقيقة الأمر كافرون . ونستطيع بناءً على ذلك أن نتبيّن كبير وجه شبه بين منافقى اليهود ومنافقى العرب ، ونستطيع كذلك أن نفهم بأنّنا بصدد فريقٍ من اليهود غير المألوف وغير المعهود . لقد جرت عادة اليهود فى المدينة إثر هجرة المصطفى ﷺ وحتّى غزوة بدرٍ الكبرى بل بعد ذلك بشىءٍ من الوقت ، أن يعلنوا صراحةً ما فى أعماقهم من عدم تصديقٍ للرّسول الكريم . وإنّى ما كان من هذا الفريق التّوافق بين ما يُسِرّ وما يعلن لأنّ لديه ذات الإحساس الّذى كان لدى كفّار مكّة قبل الهجرة ، بأنّ المسلمين قلّةٌ مستضعفة . وبما أنّ النّفاق لدى العرب لم يظهر فى مكّة قبل الهجرة لأنّ أسبابه لم تكن متوافرة ، وإنّما توافرت بعد الهجرة وتحوّل المسلمين بفضل الله تعالى قوّةً هائلةً ومن ثمّ أحسّ الكافرون بضعفهم وقلّة حيلهم تجاه قوّة المسلمين المطردة النّماء ، فما كان من هؤلاء الكافرين

---

(١) تفسير القرطبى ص ٣٩٩ والبحر المحيط ١/٢٧٤

(٢) سورة آل عمران ٧٢ ، ٧٣

إلاّ أن نافقوا بأن أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان . إنّ هذا الإحساس ذاته هو الّذى مرّ به يهود المدينة المنوّرة ، فبعد غزوة بدرٍ أحسّوا بقوّة المسلمين النّامية ففرّوا إلى الزّعم بكون القرشيّين إنّما إنهزموا فى بدرٍ لأنّهم لا علم لهم بالقتال بعكس اليهود الّذين لو قاتلهم المصطفى ﷺ والمؤمنون لعلموا — على حدّ زعم اليهود — أنّهم هم النّاس . وقد كان المنعطف الحقيقىّ الّذى بدأت عنده أسباب ظهور النّفاق بين اليهود دليلاً أكيداً على قوّة المسلمين المضطردة النّماء ، غزوة بنى قينقاع ، ثم غزوة بنى النّضير ، ثمّ غزوة بنى قريظة . وبعد غزوة بنى قريظة بالذّات وكان ذلك سنة خمسٍ من الهجرة وفق الرّأى الرّاجح ، أيقن اليهود بل أيقن كلُّ المناوئين للدّعوة إلى صراط العزيز الحميد من العرب أنّ المسلمين بقيادة المصطفى ﷺ قادرون بفضل الله تعالى على أن يقولوا كلمتهم وأن يملوا إرادتهم . وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تعطى مؤشراً حقيقيًّا دالاً على قوّة الإسلام المضطردة النّماء وضعف الكفر المستمرّ الخفاء . وها هو ذا الفريق من منافقى اليهود يزعم حينما يلتقى بالمؤمنين أنّه مؤمن مثلهم . وإنّ هدف اليهود من هذا الإعلان والادّعاء هو هدف المنافقين من العرب حينما يعلنون الإيمان الّذى لا يعتقدون كى يأمنوا على دمائهم وأعراضهم وأموالهم ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾[1] .

وإذا كان اليهود فى مجموعهم يمرّون فى ذلك الوقت بمرحلة نفاق ، فإنّهم وراء ذلك ينقسمون فريقين . الفريق الّذى يقول للمؤمنين خلاف ما يعتقد زاعماً بأنّه آمن . والفريق الّذى لا يقول للمؤمنين ذلك . ويلاحظ أنّ الفريقين معاً مؤمنان من الأعماق بأن محمداً ﷺ رسول ربّ العالمين وأن القرآن الكريم كلام ربّ العالمين . والّذى حال بين الفريقين وبين الإيمان الصّادق حسدهم للمؤمنين أن يختصّهم الله تعالى بذلك الفضل العظيم والخير العميم فالرّسول الكريم من العرب والقرآن الكريم بلسانٍ عربيّ مبين . وإنّ علم اليهود بهذا الحقّ الّذى تبيّن وحسدهم للمؤمنين ولّدا صراعاً نفسيًّا عميقا لدى اليهود . إنّهم لا يطيقون الاعتراف بالحقّ الّذى يعلمون علم اليقين . فما هو الموقف إذن ؟ أن يجحد فريقٌ الحقّ الّذى استيقنته نفسه ، وأن يزعم فريقٌ أنه مؤمنٌ بينما هو فى

---

(١) سورة الأحزاب ١٨

أعماقه حاقدٌ حاسد جاحد .

وإذا كان قد جرى من ذى قبل بين المنافقين وبين شياطينهم من الرّؤساء نوعٌ من الحوار أشار إليه قوله تعالى[1] : ﴿ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون ﴾ فإنّ مثل ذلك الحوار يجرى بين فريقى اليهود المنافقين وغير المنافقين .

وربّما فهمنا من المقارنة بين هذا القول فى حق المنافقين من العرب : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ وبين هذا القول فى حقّ المنافقين من اليهود : ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض ﴾ وربّما فهمنا من ذكر لفظ الشّياطين فى حق الأوّلين ومن ذكر لفظ « بعض » فى حقّ الأخيرين قوّة نفاق العرب وضعف نفاق اليهود بمعنى أنّ منافقى العرب الّذين مردوا على النّفاق لا زال لديهم الأمل فى أن تدور الدائرة على المؤمنين وأن تكون الدّولة لهم ، وأنّ منافقى اليهود قد تسرب الوهن إليهم وتمكّن الإحساس بالضّعف منهم .

وربّما كان ثمّة سببٌ وراء عنجهيّة منافقى العرب واستكانة منافقى اليهود ، هو أنّ اليهود كانوا على علمٍ بصدق المصطفى ﷺ ، وليس كذلك العرب . أو ليس بنو إسرائيل هم الّذين كانوا يسألون الله سبحانه وتعالى أن ينصرهم على أعدائهم بالرّسول المنتظر الّذى دنا وقت ظهوره ؟ إذن هم على علمٍ تامّ بصدق المصطفى ﷺ ولكنّ التّعنّت طبعهم وديدنهم .

ويبقى وراء ذلك سببٌ غاية فى الأهميّة يعود إليه سرعة تمكّن الوهن من القوم وهو أنّ جنس اليهود فى حالة الإحساس بالضّعف ليس لذلّه واستكانته مزيد ، وفى المقابل فى حالة إيناس القوّة ليس لطغيانه وبطشه مزيد . وها هو ذا الذّلّ وها هى ذى الاستكانة يتمكنان من القوم ، وها هو ذا الفريق يعلن للمؤمنين إيمانه ويسرّ كفره .

وإنّ هذين الفريقين المتّفقين فى الأعماق على صدق المصطفى ﷺ والمتحدّين ضدّ الإسلام برفض تصديقه ﷺ علانيةً بسبب الحسد من عند أنفسهم ، وإنّ هذين الفريقين اللّذين يمزّق أعماقهما الصرّاع بين اعتقادهم صدق المصطفى ﷺ وبين إعلانهم

---

(١) سورة البقرة ١٤

تكذيبه أو إعلانهم دعوى تصديقه ، ليضربون أسوأ الأمثلة على حمقهم وغبائهم . إنّ الفريق الجاحد بقلبه ولسانه يلوم أشدّ اللّوم الفريق الآخر المعترف بلسانه الجاحد بقلبه ، وذلك حينما يلوم الفريق الأوّل الفريق الثّانى بسبب قوله للمؤمنين بأنّه مؤمنٌ بما جاء به المصطفى ﷺ من ربّه . وإنّما كان هذا اللّوم لأنّ ما قاله الفريق الثّانى للمؤمنين يعتبر موافقاً تمام الموافقة لما بيّنه الله تعالى لليهود وأعلمهم به فى التّوراة من نعوت المصطفى ﷺ . إنّ الفريق الثّانى حينما يقول ذلك للمؤمنين يكون بذلك قد أقام الحجّة يوم القيامة للمؤمنين عليه فقد أعلن تصديقه للمصطفى ﷺ الّذى جاء وصفه فى التّوراة . وكأنّ الفريق الأوّل اللاّئم يظنّ أنّه حينما يعلم هو موافقة نعوت المصطفى ﷺ لنعوته عليه الصّلاة والسلام فى التّوراة ولكنّه يتجاهل هذه الموافقة ولا يعلنها وهو الّذى استيقنت بها نفسه ، فإنّ الله سبحانه وتعالى غير مطّلع على نواياه ! وكأن الفريق الثّانى حينما يعلن إيمانه بينما هو يبطن الكفر يظنّ أنّ الله سبحانه وتعالى غير مطّلع على حقيقة تعنّته وصريح مخالفته لتعاليم السّماء .

إنّك تتبيّن غباء القوم وحمقهم وسفههم من أىّ زاويةٍ نظرت إلى أقوال القوم وتدبّرت مخالفة أقوالهم أفعالهم ، وسرّهم علانيتهم . إنّ حمق القوم يجعلهم يظنّون أنّ الحجّة للمؤمنين عليهم قائمة حينما يعلن فقط ذلك الفريق للمؤمنين إيمانه ، بينما الحجّة عليهم قائمة دائماً لأنّهم واثقون من صدق المصطفى ﷺ . إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى يعلم السّرّ وأخفى ، والّذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه على علم تامّ بكلّ أعمال اليهود وأقوالهم ، بحسدهم للمؤمنين وجحدهم آيات الله تعالى وقد استيقنتها أنفسهم ، بإسرارهم الكفر وإعلانهم الإسلام . إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء . ولكنّ اليهود لا يفقهون .

والحقيقة أنّا حينما نقارن بين موقف هذا الفريق من منافقى اليهود من الإسلام وبين موقف الكافرين والمنافقين من العرب ، نتبيّن أنّ موقف هذا الفريق من منافقى اليهود الّذى جمع بين النّفاق والكفر وتأييد المنافقين والكفّار بدافع الحسد للمؤمنين على ما أنعم الله سبحانه وتعالى عليهم من نعمٍ لا تُحْصى ، نتبيّن أن موقف هذا الفريق من منافقى

اليهود هو الأسوأ . إنّ هذا الفريق من اليهود قد اتّسم بالنّفاق . والله سبحانه وتعالى يقول فى حق المنافقين[١] ﴿ إنّ المنافقين فى الّدرك الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ وإذا كان هذا التّهديد لمنافقى العرب فى المقام الأوّل ، فإنّ نفاق اليهود أشدّ سوءًا . وتفسير ذلك أنّ نفاق العرب يعود كثيراً إلى الجهل والى الحمق . أمّا نفاق اليهود فإنّه يرتكز على العلم بصدق نبوّة محمّد ﷺ الّذى تتّفق نعوته عليه الصّلاة والسّلام كما شهدها اليهود ولمسوها مع نعوته عليه الصّلاة والسّلام فى التّوراة وفى كتبهم المقدّسة . وبدافع الحسد كفروا حينما كانوا قادرين على إعلان الكفر ، وتحت وطأة قوة الإسلام النّامية نافقوا وبناءً على ذلك يكون إعلانهم الكفر والنّفاق بدافع الحسد رغم علمهم القطعىّ بصدق المصطفى ﷺ . وهم وراء ذلك يعضدون الكفر والنّفاق ضدّ الإسلام ، وقد نصّ القرآن الكريم على ذلك فى العديد من المواضع وعلى كون اليهود إخوان المنافقين والكافرين ، وليس المنافقون إلا كافرين فى الحقيقة . ومن ذلك سورة الحشر[٢] وسورة النّساء[٣] . وقد نصّت الأخيرة على زعم اليهود ، وهم أهل كتاب ، أنّ كفّار قريش المشركين أهدى من المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ سبيلا ، كما نصّت على دافع الحسد الّذى حدا بالقوم إلى هذا القول الّذى لا يصدر إلاّ من حاسدٍ حاقدٍ لا يطمع منه أبداً فى أنصافٍ ولا فى مودّة . قال تعالى[٤] : ﴿ ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلا . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا . أم لهم نصيبٌ من المُلك فإذاً لا يؤتون النّاس نقيرا . أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما . فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه وكفى بجهنّم سعيرا ﴾ .

وهكذا يتبيّن أنّ منافقى اليهود وكافريهم أشدّ من المنافقين من غيرهم من العرب وأشدّ من الكافرين سوءً . وهم إذا كانوا يستطيعون أن يخفوا عن عباد الله تعالى اقتناعهم

---

(١) سورة النساء ١٤٥ الآية ١١

(٣) الآية ٥١ (٤) سورة النّساء ٥١ ــ ٥٥

بصدق المصطفى ﷺ ، فهل يستطيعون أن يخفوا ذلك عن ربّ العباد ؟ المتبادر إلى ذهن كلّ عاقل أنّه لا يستطيع أن يخفى شيئا عن الله سبحانه وتعالى الّذى يعلم السّرّ وأخفى . والعجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم يتصرّفون كما لو أنّ رب العزّة يخفى عليه اقتناعهم بصدق المصطفى ﷺ وإعلان ذلك فيما بينهم وتواصيهم بإخفاء ذلك وتلاومهم حينما يتفوّه بعضهم ، ولو كان منافقاً ، ببعض ما يتفق مع اقتناعه فى أعماقه بصدق المصطفى ﷺ . إن بعضهم يلوم بعضهم الآخر إذا خلا به بسبب قوله للمؤمنين ما يفهم منه صدق المصطفى ﷺ لانّ هذا القول سيكون حجّةً للمؤمنين يوم القيامة ضدّ اليهود . وحينما يكون القائلون لا يعقلون فى نظر اللاّئمين . وحينما يكون اللاّئمون لا يعقلون بسبب هذا القول فالله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، يكون الفريقان لا يعقلان . وقد أوحت الآية الكريمة التّالية بذلك فى لومها الشّديد لهؤلاء القائلين وتعنيفها الشّديد بهم .

الآيــة رقــم (٧٧)

قال تعالى : ﴿ أو لا يعلمون أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون ﴾

إنّ اليهود أهل كتاب سماوىّ ، ومن صميم التّعاليم الّتى يعرفونها جيّداً أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم الجهر والسّر ، ويعلم ما يخفى عن السّرّ كالّذى توسوس به نفس الإنسان . فكيف يصحّ أن يصدر من عاقل ما يُفْهم معه أنّ مجرّد القول للآخرين هو فقط الّذى يحيط به علم الله تعالى ، فهذا الّذى يفهم من لوم بغض اليهود بعضًا ، وكأنّ ما يقوله بعض اليهود لبعضهم الآخر ، وكأن ما يسرّه بعضهم لبعضهم الآخر ، وكأن ما توسوس به نفس الواحد منهم خارجٌ من دائرة العلم . إنّ ذلك هو عين الحمق وعين السّخف ، وها هى ذى الآية الكريمة تبكّتُهُمْ وتقرّعهم فى سؤالها الإنكارى أو لا يعلم أولئك اللاّئمون من اليهود أنّ الله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرّون وما يعلنون ، ومن بين ما يسرّون تصديقهم للمصطفى ﷺ فى أعماقهم ، ومن بين ما يعلنون تكذيبهم للمصطفى ﷺ ولوم بعضهم بعضاً العنيف إذا بدر منه قولٌ يوافق اعتقاد القوم وإسرارهم . إن مثل ذلك القول سيكون فى

يقين القوم حجّةً للمسلمين عليهم يوم القيامة مع أن اعتقاد القوم وإسرارهم حجّةٌ عليهم سابقة.إنّ القوم على علمٍ تامٍ بأن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يسرّون وما يعلنون ، ومع ذلك هم يتورّطون فى مثل هذا التّناقض العجيب والقول السّخيف .

الآيــة رقــم (٧٨)

قال تعالى : ﴿ ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ وإن هم إلاّ يظنّون ﴾ .

ومنهم : ومن هؤلاء اليهود[١] قاله ابن عبّاس[٢] .

أميّون : لا يكتبون ولا يقرءون . ومنه قول النّبىّ ﷺ : إنّا أمّةٌ أمّيّة لا نكتب ولا نحسب ، يقال منه : رجلٌ أمّىّ أى بيّن الأمّيّة[٣] نُسب إلى الأمّ لأنّه بحال ولدته أمّه لم ينتقل عنها[٤]

الكتاب : التّوراة[٥] .

إلاّ أمانىّ : استثناء منقطع ؛ لأنّ الأمانىّ ليست من جنس الكتاب ولا مندرجة تحت مدلوله ، وهو أحد قسمى الاستثناء المنقطع ، وهو الّذى يتوجّه عليه العامل . ألا ترى أنّه لو قيل : لا يعلمون إلاّ أمانىّ ، لكان مستقيما . وهذا النوع من الاستثناء يجوز فيه وجهان . أحدهما النّصب على الاستثناء وهى لغة أهل الحجاز ، والوجه الثّانى الإتباع على البدل بشرط التّأخر ، وهى لغة تميم ، فنصب أمانى من الوجهين[٦] وإنّما سمّى هذا الاستثناء منقطعاً « لانقطاع الكلام الّذى يأتى بعد إلاّ عن معنى ما قبلها . وإنّما يكون ذلك كذلك فى كل موضعٍ حسن أن يوضع فيه مكان إلاّ لكن فيعلم حينئذٍ انقطاع معنى الثّانى عن معنى الأوّل . ألا ترى أنّك إذا قلت : ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٦ وتفسير القرطبىّ ص ٤٠٠ والبحر المحيط ١/٢٧٥ .

(٢) البحر المحيط ١/٢٧٠ .

(٣) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٦ وتفسيرالقرطبىّ ص ٤٠٠ .

(٤) البحر المحيط ١/٢٦٩ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٧ والبحر المحيط ١/٢٧٥

(٦) البحر المحيط ١/٢٧٥ .

إلاّ أمانيّ، ثمّ أردت وضع لكن مكان إلاّ و حُذِف إلاّ وجدت الكلام صحيحاً معناه صحّته وفيه إلاّ ، وذلك إذا قلت : ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب لكن أمانيّ، يعنى لكنّهم يتمنّون . وكذلك قوله : ما لهم به من علمٍ إلاّ اتّباع الظّنّ ، لكن اتّباع الظّن ، بمعنى لكنّهم يتّبعون الظّنّ ، وكذلك جميع هذا النّوع من الكلام على ما وصفنا »[١] .

والأمانى جمع أمنيّة وهى أفعولة أصله أمنوية اجتمعت ياء وواو وسبقت إحداهما بالسّكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت الياء فى الياء[٢] وجمعها بتشديد الياء لأنّه أفاعيل[٣] وقرأ الجمهور أمانىّ بالتّشديد . وقرأ أبو جعفر وشيبة والأعرج وابن جمّاز عن نافع وهارون عن أبى عمرو أمانى بالتّخفيف ، جمعه أفاعل ، ولم يعتدّ بحرف المدّ الّذى فى المفرد . قال أبو حاتم : كلّ ما جاء من هذا النّحو واحده مشدّد فلك فيه التّشديد والتّخفيف مثل أثافى وأغانى وأمانى ونحوه[٤] وهى من مَنَى إذا قدّر ؛ لأنّ المتمنّى يقدّر فى نفسه ويحرز ما يتمناه[٥] « والتّمنّى تقدير شيءٍ فى النّفس وتصويرُهُ فيها وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنّ ، ويكون عن رويّةٍ وبناءٍ على أصل . لكن لمّا كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك ، فأكثر التّمنّى تصوّر ما لا حقيقة له . قال : أم للإنسان ما تمنّى . فتمنّوا الموت . ولا يتمنّونه أبداً . والأمنية الصّورة الحاصلة فى النّفس من تمنّى الشّىء . ولمّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له وإيرادَه باللّفظ صار التمنّى كالمبدأ للكذب ، فصحّ أن يعبّر عن الكذب بالتّمنّى ، وعلى ذلك ما رُوى عن عثمان رضى الله عنه : ما تغنّيت ولا تمنّيت منذ أسلمت . وقوله : ﴿ ومنهم أمّيّون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ﴾ . قال مجاهد : إلاّ كذبا »[٦] عن ابن عبّاس : إلا أمانىّ الأحاديث[٧]

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٨ (٢) البحر المحيط ١/٢٦٩

(٣) البحر المحيط ١/٢٧٠

(٤) البحر المحيط ١/٢٧٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ١/٢٩٨ وابن جرير لا يجيز سوى قراءة تشديد ياء الأمانىّ : وانظر معانى القرآن للأخفش ١/١١٧

(٥) البحر المحيط ١/٢٦٩ .

(٦) المفردات فى غريب القرآن ٤٧٥ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١/٤٩

(٧) تفسير ابن كثير ١/١١٦

« وأمانيّهم أنّ الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم أو ما يمنيّهم أحبارهم من أنّ النّار لا تمسّهم إلاّ أيّاماً معدودة . أو لا يعلمون إلاّ أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فنقلوها على التقليد . قاله ابن عبّاس ومجاهد واختاره الفرّاء »[١]« قال أبو مسلم : حمله على تمنّى القلب أولى لقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلاّ من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم ﴾ »[٢] .

وإن هم إلاّ يظنّون : إن هنا هى النّافية بمعنى ما . وهم مرفوعٌ بالابتداء . وإلاّ يظنّون فى موضع الخبر[٣] كما قال جلّ ثناؤه : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلاّ بشرٌ مثلكم ﴾ يعنى بذلك : ما نحن إلاّ بشرٌ مثلكم[٤] .

أنكر السّياق من ذى قبل على المؤمنين أن يطمعوا فى إيمان كفّار بنى إسرائيل ونصّت على ذلك الفريق منهم الّذى كان يسمع كلام الله تعالى ويعيه ثمّ يحرفه عن عمدٍ وسابق إصرار . وهذا الفريق الّذى تجرّأ على كتاب الله تعالى الّذى أنزله على موسى عليه السّلام فحرّفه ، كان منه النّفاق كذلك فادّعى للمؤمنين تصديقه للرّسول الكريم ولما أنزل الله تعالى عليه من قرآنٍ مجيدٍ . وكان هذا الفريق المنافق محطّ لومٍ من الفريق الّذى لم ينافق فلم يدّع الإيمان والتّصديق بالرّسول الكريم وبالقرآن العظيم . رغم اشتراك هذا الفريق مع سابقه فى اعتقاده صدق المصطفى ﷺ لموافقة نعوته النّعوت الموجودة فى التّوراة ، وبسبب الحسد استكبر القوم وكفروا .

ويفهم أنّ السياق يستبعد إيمان هذا الفريق كذلك وينكر على المؤمنين أن يطمعوا فى إيمانهم . ويمكن أن يسمّى الفريق الأوّل بالفريق المحرّف المنافق ، ويسمىّ الفريق الثّانى بالفريق المجادل بالباطل ، كما يمكن أن يسمّى الفريق الثّالث الّذى تشمله الآية الكريمة الّتى نحن بصددها بالفريق العامّى أو جماعة العامّة الّتى بطبعها التّقليد وطاعة السّادة والكبراء . ونستطيع أن نفهم أنّ الإنكار على المؤمنين أن يطمعوا فى إيمان الفريقين السّابقين ينسحب على هذا الفريق أيضا .

---

(١) البحر المحيط ١/٢٧٥
(٢) البحر المحيط ١/٢٧٦
(٣) البحر المحيط ١/٢٧٦
(٤) تفسير الطبرى ١/٢٩٩

والآية الكريمة تبيّن أنّ من بين اليهود أمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون فهم غير متعلّمين وفى حكم الجهّال وفى حالٍ أشبه بالحال الّتى ولدتهم فيها أمّهاتهم من الأمّيّة والجهل والبعد عن العلم الصّحيح . ونحن حينما نتدبّر حال هذا الفريق نتبيّن أنّه ليس لديه الاستعداد الذّاتى كى يشقّ طريقه بحثاً عن الطّريق القويم والصّراط المستقيم . وحينما نتدبّر المحيط الّذى وجد نفسه فيه ، نتبيّن أنّه محيط تكالب رجال الدّين على حطام الدّنيا ، وبيعهم الآخرة بثمنٍ بخس ، وتحريفهم كلام الله عن عمدٍ وسابق إصرار من بعد سماعهم له سماع تدبّر وعلمهم بالعقاب الأليم الّذى يستحقّه من يقدم على مثل هذه الجريمة النّكراء ، ومحيط المنافقين الّذين يخادعون المؤمنين ويظنّون أنّهم يخادعون الله سبحانه وتعالى وما يخادعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ، ومحيط المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحقّ . وإنّ من أهمّ أعمال المحرّفين المنافقين المجادلين بالباطل ، تأويلَ آيات الله تعالى وفق أهوائهم ، ولَىَّ أعناق النّصوص ليّاً من أجل تحقيق أطماعهم وتلبية رغائب نفوسهم الخسيسة . وكانت النتيجة الحتميّة لهذا المحيط الموبوء أن صحّ فى حقّ عامّة اليهود ما صحّ فى حقّ عامّة مشركى العرب فى قوله تعالى[1] : ﴿ بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون ﴾ وما الّذى ينتظر أن يعلمه أولئك العامّة فى تلك الأوساط الموبوءة ؟ الجواب فى قوله تعالى : ﴿ لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ وإن هم إلاّ يظنّون ﴾ إنّ العلم الّذى تحصّلوا عليه لا علاقة له بالمعانى الحقيقيّة للتّوراة . إنّ علمهم ليس أكثر من مجموعةٍ من الأمانى القلبيّة ، والأهواء النّفسيّة ، والتّصوّرات الصّبيانيّة ، والأكاذيب الملفّقة ، والظّنون المختلقة . وفى الإمكان أن نسجّل بعض هذه الأمانى الّتى أشار إليها الذكر الحكيم . من هذه الأمانى أنّ اليهود وحدهم هم الّذين سيدخلون الجنّة . قال تعالى[2] : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنّة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى[3] : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ومن ذلك زعمهم أنّهم لن تمسّهم

---

(١) سورة الزّخرف ٢٢ ، ٢٣ (٢) سورة البقرة ١١١

(٣) سورة البقرة ١٣٥

النّار إلاّ أياماً معدودة ، هى أيّام عبادتهم العجل . قال تعالى[١] : ﴿ وقالوا لن تمسّنا النّار إلاّ أياماً معدودة . قل أتّخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ومن ذلك زعمهم أنّهم أبناء الله وأحباؤه . قال تعالى[٢] : ﴿ وقالت اليهود والنّصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه . قل فلم يعذّبكم بذنوبكم بل أنتم بشرٌ ممّن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ، ولله ملك السّماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ ومن أمانيّهم أنّ الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم وأنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم[٣] إلى غير ذلك من أمانٍ وأكاذيب مختلقة سمعوها من أحبارهم فنقلوها على جهة التّقليد وهم يظنّون أنّها حقّ وأنّهم أحاطوا بالشّىء الكثير من العلم الصّحيح بينما تعاليم التّوراة فى واد وأمانيّهم فى وادٍ آخر .

إنّ العلم الّذى لدى القوم ليس سوى مجموعةٍ من الأكاذيب وأمانى النّفس وأهوائها ومن قبيل الظّنون الّتى تغلب عليها الشّكوك وتشتدّ وليست من الحقّ فى شىء ﴿ وما لهم به من علمٍ إن يتّبعون إلاّ الظّنّ وإنّ الظّنّ لا يغنى من الحقّ شيئا ﴾[٤] إنّ القوم ليس لديهم علمٌ صحيح عن آيات التّوراة ، وكلّ الّذى لديهم أمانٍ كاذبة وظنونٌ سائبة .

الآيــة رقــم (٧٩)

قال تعالى : ﴿ فويلٌ للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويلٌ لهم ممّا كتبت أيديهم وويلٌ لهم ممّا يكسبون ﴾ .

فويل : شدّة عذاب[٥] « عن ابن عبّاس : الويل المشقّة من العذاب . .... الأصمعىّ : الويل تفجّع والويح ترحّم . سيبويه : ويل لمن وقع فى الهلكة وويح زجرٌ لمن

---

(١) سورة البقرة ٨٠
(٢) سورة المائدة ١٨
(٣) البحر المحيط ١/٢٧٥
(٤) سورة النجم ٢٨
(٥) الجلالين .

أشرف على الهلكة »[١] والويل مصدر لا فعل له من لفظه[٢] وارتفع ويل بالابتداء . وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأنّ فيه معنى الدّعاء[٣] إذ الدّعاء أحد المسوّغات لجواز الابتداء بالنّكره ، وهى تقارب ثلاثين مسوّغاً[٤] .

والكتاب هنا قيل كتبوا أشياء اختلقوها وأحكاماً بدّلوها من التّوراة حتّى استقرّ حكمها بينهم[٥] « عن ابن عبّاس أنّه قال : يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الّذى أنزله على نبيّه أحدث أخبار الله تقرءونه غضّاً لم يشب . وقد حدّثكم الله تعالى أنّ أهل الكتاب قد بدّلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قطّ سألكم عن الّذى أنزل عليكم . رواه البخارىّ من طرق الزّهرىّ[٦]

« الأيدى جمع يد .... وهى حقيقةٌ فى الجارحة مجازٌ فى غيرها ، وأمّا الأيادى فجمع الجمع ، وأكثر استعمال الأيادى فى النّعم[٧] » و « بأيديهم » تأكيدٌ يرفع توهمّ المجاز .... ونظير هذا التّأكيد : يطير بجناحيه ويقولون بأفواههم .... وفى هذا التّأكيد تقبيحٌ لفعلهم إذ لم يكتفوا بأن يأمروا بالاختلاق والتّغيير حتّى كانوا هم الّذين تعاطوا ذلك بأنفسهم واجترحوه بأيديهم »[٨] .

ثمّ يقولون : أى لأتباعهم الأمّيّين الّذين لا يعلمون إلاّ ما قرئ لهم[٩] .

ممّا كتبت أيديهم : من الّذى كتبت أيديهم من ذلك[١٠] .

الكسب أصله اجتلاب النّفع ، وقد جاء فى اجتلاب الضّرّ ومنه : بلى من

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٣ وتفسير ابن كثير ١/١١٧

(٢) البحر المحيط ١/٢٧٠ وانظر معانى القرآن للأخفش ١/١١٨

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٤٠٣

(٤) البحر المحيط ١/٢٧٧

(٥) البحر المحيط ١/٢٧٧

(٦) تفسير ابن كثير ١/١١٧

(٧) البحر المحيط ١/٢٧٠

(٨) البحر المحيط ١/٢٧٧ وانظر تفسير الطّبرى ١/٣٠١ وتفسير القرطبىّ ص ٤٠٤

(٩) البحر المحيط ١/٢٧٧

(١٠) تفسير الطّبرى ١/٣٠١